جدران المدى

عمار على حسن

رواية

ميريت

جدران المدى

جدران المدى

رواية

عمار علي حسن

الطبعة الأولى ٢٠٠٦ .

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

صورة الغلاف: د. نبيل بهجت

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٥٣٥٤

الترقيم الدولي: 977-351-324-6

عمار علي حسن

جدران المدى

رواية

دار ميريت

القاهرة ٢٠٠٦



إهــداء

إلى..

آسر وأريج .. عمري الآتي

(أ)

كل شيء هالك هنا إلا المرارة المتدفقة إلى فمي، وصخرة عالية تعاند الفناء. امتطيتها وخبأت عيني في عمق الظلام يمنة ويسرة، وتركت أذني لصفير الريح والغبار، وهواء بارد اصطكت له أسناني. احتضنت حجرين ثقيلين بعبء النسيان، وقلت لنفسي:

ـ مأوى حتى الصباح.

لا نوم يأتي ولا تعبان ينهي عذابي. ووجدت نفسي أصرخ في فضاء أسود مثقوب عن طرفه البعيد بنجوم ترتعش:

ـ أنا هنا أيتها الذئاب المسعورة .. تعالي لأفدي الغزلان الوديعة، فلا تضيع كل أيامي هباء.

وجاءني الصدى من جوف الرمال البعيد:

ـ هباااااااااااءءء

وتداعت تحت جسدي الملقى بلا عناية آثار أقدام كل الراحلين الذين مروا من هنا. العمال الآيبون من الغرب. قطاع الطرق. بدو الصحراء. المغامرون الباحثون عن الكنوز. قصاصو الأثر. زواحف الصخور، وأمل في حياة هادئة بجوف كهف عميق.

نهار كامل مر في نوم متقطع. الاستيقاظ كان على أبواب ليل جديد. الشمس غاربة والسواد يأتي على مهل. عصا تتمدد في حلقي. قدماي تعاركان الحصى المنساب بلا نهاية. هاأنا وحيد مرة ثانية بلا رفيق. سأموت هنا ولن

يسمع بي أحد. سأستريح من الشرطة، وأسكن أرضا براحا، لا عيون وقحة تراقبني ولا ألسنة تؤذيني.

أضواء ترتعش في طرف المدى. عسكر هؤلاء يدبون هناك في الفراغ على هدي لمبات واهنة، أم طلقات نار مدفعية ترمي إلى البعيد في تدريب ليلي، أم طائرات تحلق في طرف السماء الملامس للرمل سرعان ما ستذهب، ويحل الظلام الدامس.

ناديت بأعلى صوتي:

- يا عم عوض...

وأتاني الصدى من الأقاصي ساخرا مني ولا مجيب. قال لي إن كهفهم يبتعد عن المزرعة عشرة أميال فقط، وهاأنا قطعت نحو عشرين ميلا دون جدوى. أدور وأنا أشعر أنني أعود من حيث بدأت، والرمل والصخور لا تنطق بشيء. لا علامات على أنني أتقدم إلى هدفي. لا دليل ولا طريق تتهادى، ولا أمل يبرق في الرمال والخيال. ليس هناك سوى عواء ذئاب تفتش عن فرائسها، لتسقي الحصى بالدم. ودّان شارد، أو غزالة مختبئة في جحر، ستهدي الليلة لحمها الطري لأنياب حادة.

هاهو النور يشق طريقه بحثا عني مرة أخرى، فيتململ الجفنان اللذان انطبقا في إغفاءة الهزيع الأخير. هاهي الشمس تأتي ومعها بصيص أمل، وعيون ملايين الأشباح التي ترصد لهفتي. رقرقت الدموع، وشفت الروح، وجدت نفسي مشبوبا بالغناء. ورحت أغني، بعقيرة مخنوقة، ولحن حزين. وعدت من حيث بدأت، حين جئت إلى هذا المكان لأول مرة، وغلبني وقتها الحزن، وامتلك شراييني وأنفاسي، فرحت أغني. كنت لا أشعر في البداية بالصوت المتحشرج، ولا بالحروف الواقفة على أول الحنجرة. لكن حين سلسل الكلام،

واختلط بدموع هطلت لتغسل الرؤى القاتمة أمامي، تماديت في الغناء. وحلت في الحنايا أغنية قديمة، كنت أرددها وأنا أعود وحيدا من مدرستي البعيدة. كانت تؤنس وحشتي، وأنا أفرد الخطى على جسر طويل، يشق الزراعات ويفتح ذراعيه للمدى.

يدق جرس الحصة الأخيرة ويتفرق الصحاب. كلهم من تلك القرية التي تقع بها المدرسة. أنا وحدي من قرية أعيت المسافات الطويلة أهلها عن الاهتمام بالعلم والتعليم. بعد دقائق من مغادرتي باب المدرسة، تأخذني الوحدة إلى بحار الشجن، فأردد هذه الأغنية. لم يكن أحد قد غناها أمامي، ولا سمعتها من المذياع، لكنني أنا الذي ارتجلت كلماتها، ولحنتها في نصف ساعة من الحزن والغربة. رحت كل يوم أعيدها، ثم أضيف إليها كلمات اقتنصتها من الفرحة التي تغمرني حين أرى بيوت قريتنا صامدة تحت سقف السماء الوسيعة، وشواشي النخيل المتتابع بقامات مديدة. رحت استجمع الكلمات الذائبة في سنيني المترعة بالشقاء، وأخذت أرددها، وأنثرها في الفضاء الرحب. انداحت حولي دون أن أدري، وأنا أغوص في الغناء، مستعذبا عزلتي في همومي. راح الحزن يكبر، ويتمدد في روحي الخاوية فصرع الغناء، وحل الصمت المطبق. وأخذ يحفر في أيامي، ويقلبها فيفجر مرارتي مرات ومرات. وسيطرت علي هذه الحادثة التي دفعتنى إلى ذلك المكان النائى، الذى أهملته الجغرافيا ونسيه التاريخ.

صحراء ممتدة بلا نهاية، وسراب تلو سراب، وسماء تحط في مرمى البصر على حلمى الأعزل بالإياب. ليس هناك ما يؤنسني سوى هذه الأفدنة القليلة من الشعير. نقطة خضراء في بحر الرمال الأصفر، على طرفها يقف الخص المصنوع

مـن جريد النخل والبوص والطين دليلا آخر على ترعرع حياة وسط الموت المتوغل إلى أعماق السنوات البعيدة.

هاأنـا قـد أصبحت وحيدا، بعد أن ضاعت سيارة صاحب المزرعة من مرمى عـيني، في المـدق الطويـل، الذي ينتهي إلى طريق الأوتوستراد المؤدي إلى مدينتي السـلوم ومرسـى مطروح. كان قبل دقائق هنا يملأ المكان ضجيجا بصوته الأجش. قهقه وأملى أوامره، وأراد أن يؤكد أنه صاحب العمل، وأنني الأجير، فقال:

ـ عاوز أشرب شاي.

جمعت الحطب، وأشعلت النار، ومددت يدي إلى علبة الشاي، فقال لي:

ـ اقتصد في السكر والشاي، فلن يأتيك غيرهما إلا بعد أسبوع.

ـ أسبوع؟.

ـ الأمـر لـيس صـعبا، سـأعلمك كـيف يتم تشغيل ماكينة المياه، وبجوارك أكـياس السـماد، أبذرهـا قـبل الـري، والشعير لا يحتاج إلا رية واحدة وبعدها يأتي الحصاد.

ـ أنسـيت أنـني فـلاح، ولطالمـا سـاعدت أبـي في الحقل .. ما يخيفني أنني سأبقى هنا وحيدا.

ـ عند الحصاد سيأتي إليك أنفار آخرون.

رحـت أحصـي السـاعات انتظارا لموسم الحصاد، حيث الصحبة والأهازيج. جلسـت أتخيل هؤلاء الذين سيقضون معي أياما، يقتلون فيها وحدتي وخوائي، ويقـربوني مـن الحـياة. قلـت ربمـا عشرة أشخاص. واحد لكل فدان. وتمنيت أن يكونـوا ثلاثة فقط، حتى يطول الحصاد. هل أحكي لهم قصتي؟ .. الحادثة التي رمتني هنا؟ .. أم أداريها وأعيد أنا وحدي اجترارها؟.

استعذبها وأمقتها، وأرى من بين ستائرها، حالكة السواد، ثقبا منيرا، ينتهي حيث المدن والناس والحبيبة التي تركتني ومضت، وحيث أصدقائي الذين ربما أوحشهم غيابي. قبل كل هؤلاء، أمي وأبي اللذان ينتظران رجوعي.

لا أظن أن أحدا من كل هؤلاء كان يتوقع لي هذه النهاية التعيسة في ذلك المكان الضائع الموحش، أو تلك الحياة التي تعوزها مجرد ابتسامة.

***

هاهي أول ليلة من ليالي الغربة تأتي على مهل. العصر يذهب ثقيلا، ليفسح الطريق أمام مغرب حزين، يحل مقبضا كأنه الموت، يصرع الشمس، فتهوي خلف التباب والتلال البعيدة، وفجأة تضيع معالم الرمال والأحجار في طيات السواد، ويظهر هناك في اتجاه الشمال ضوء خافت مرتعش، يبدو كأنه نهاية حدود العالم.

أين أنت أيتها الأمسيات البعيدة، حين كنا في مثل هذا الوقت نأتي فرادى، مجردين من كل هموم النهار، لنلتقي على المقهى المواجه للنيل وأمامنا تتراقص الفرحة. نتبادل النكات، وأخبار الدول والشعوب، وآخر كتاب قرأناه. هذه هي عطلة الصيف أيام الجامعة، مكتنزة بالحكايات والبهجة وأصدقاء الخير، مفعمة بالعمل والنشاط. وقتها كنا نحمل رؤوسنا على كفوفنا، وتراودنا أحلام عريضة عن وطن مزدهر، وإن اختلفت الرؤى وتوزعت المشارب. لم يعد لي من هذا الوطن الآن سوى تلك البقعة المنفية عند آخر حدوده الجغرافية المعروفة.

سافر الليل ما أمكنه، وهبت نسائم باردة، أخذت تصفعني، حتى تملكني ارتعاش متواصل. بحثت عن علبة الثقاب، وفتشت بجانبي عن بقايا الحطب، الذي كنت قد جمعته من أجل شاي صاحب المزرعة. كومتها وأشعلت

النار. ارتفع اللهب، ثم راح يخمد رويدا .. رويدا، حتى استقر على جمرات صافية، ملأتني دفئا وسكينة، وداعبت رغبتي المحمومة في الهروب نوما، فكدت أسقط في سبات عميق.

كان عواء الذئاب القادم من جوف الظلام البعيد، يفزعني بين حين وآخر، لكنني كنت مطمئنا إلى أنها لن تجرؤ على مهاجمتي، طالما بقيت النار أمامي مشتعلة، فالذئاب تخشى النار كما قال لي أبي. كان علي أن أجتهد ما وسعني بالنهار في جمع الحطب ليحرسني ليلا من فكاكها المفترسة.

في الليلة الثانية أشعلت النار، وقلت في نفسي:

- انتهيت من الذئاب.

جلست أمرر راحتي فوق اللهب، وأدلك بالدفء جسدي الذي هده كدح النهار وبرد الغروب. لفني سكون وغربة، فطفرت عيناي بالدموع. فجأة كان علي أن أمسح الدموع سريعا، وأحملق في عمق الظلام، حتى أعرف إلى أي شئ يعود هذا الدبيب المتلاحق القادم نحوي. دبيب وخشخشة، ثم صوت سحب أجزاء بندقية آلية استعدادا لطلق ناري اقتحم أذني. ارتعدت أوصالي، ولاح الموت في الأفق الأسود. قبضت على بعض شجاعتي الهاربة، وقلت بصوت مخنوق:

- من؟.

فجاءني صوت غليظ من جسد فارع، خلصت جوانبه من العتمة:

- أنت من؟.

وبعفوية شديدة أجبت:

- أنا علي صابر حسنين.

فلاحقني بصوت مغموس في الوجع والغربة:

ـ وأنا عابر سبيل.

سرت بعض طمأنينة في أوصالي فسارعت:

ـ أهلا بالضيف الكريم.

(ب)

برقت ذاكرتي في سواد التوجس، الذي كاد أن يملأ المساحة الفاصلة بين المكان الذي جلس فيه عابر السبيل ومكاني، بحكاية طالما قصتها علينا جدتي، وهي تضحك، وتلمح إلى شجاعتها. كان لجدي فدان على أطراف قريتنا مزروعا ذرة رفيعة ، صار مأوى للصوص. ذات ضحى توغلت جدتي بين أعواد الذرة لتصل إلى شجرة الجوافة التي تتوسط الفدان تماما، وتجمع بعض ثمارها. وبينما هي تسير اصطدمت قدماها بجسد مطروح على الأرض لرجل في أواسط عمره. هب مذعورا فوجد أمامه امرأة في خريف عمرها، حملق فيها طويلا وقال:

ـ رجل مثلي تشرق عليه الشمس وهو نائم الموت أكرم له.

فلاحقته جدتي ثابتة:

ـ من أنت؟

فرد وهو يلملم جسده وأشياءه:

ـ أنا من بحري .. من قبلي .. من شرق .. من غرب .. أنا من فوق .. من تحت.

تهادت هذه الحكاية إلى ذهني في سرعة خاطفة حين قلت لعابر السبيل:

ـ من أي البلاد أنت؟

فتاه مني في إجابة طويلة، مد حروفها على اتساع وجعه وقال:

ـ أنا من كل البلاد.

تـربع فـوق كومـة قش كنت قد فرشتها لتمنح المكان دفئا. مد يده في جيب جلبابه وأخرج علبة من الصفيح. فتحها، وراح يبرم سيجارة. حين وضعها على طرف فمه قال:

- أبرم لك سيجارة.

- تركت التدخين من شهور.

- خيرا فعلت.

وعـاد الوجـوم يخـيم من جديد، بينما هو ينفث دخانه في جنبات الخص، ويلقـي نظـرة شـاردة صـوب المجهـول. وعـواء الذئـاب يـنطلق كالرصـاص وراء التباب، فيهتز له قلبي، وأغوص في بحر عميق من الصمت المزوج بالخوف.

بـدا لي الرجل عالما مجهولا مملوءا بالغموض والريبة. وعلى خطوط الضياء المرتعشـة المتصـاعدة مـن أزاهـير اللهـب تفرسـت في ملامحـه فوجدتهـا تـنطق بخشـونة ظاهـرة، وتاريخ حافل بعالم الليل والمغامرات. تنبه الرجل إلى تفرسي في وجهه، فابتسم قائلا:

- هل رأيتني من قبل؟.

- لم أرك أنت بالتحديد.

- ماذا تقصد؟.

- تصرفاتك معي أوحت لي بالكثير، وملامحك كملامح رأيتها كثيرا.

- أين؟.

- في قريتنا.

- من أي بلد أنت؟.

- من قرية صغيرة في محافظة القليوبية.

انتابه صمت، فخفت أن ينقطع الحديث مرة أخرى فعاجلته بالسؤال:

- وأنت؟.

- أنا من سوهاج.

- منذ متى جئت إلى هذا المكان؟.

- منذ مدة طويلة.

وأردت أن اقترب منه أكثر، فنظرت إليه مستطلعا، والظنون تملأ رأسي، وسألته:

- حارس مزرعة مثلي؟.

قهقه كثيرا، ثم ربت على كتفي وقال:

- أعدائي هم الحراس.

فابتسمت وقلت:

- لم تخب ظنوني.

***

كانت حكايته مألوفة بالنسبة لي، مثل وجهه تماما، فطالما سمعت عن رجال أذل الفقر أعناقهم، فتحولوا إلى أولاد ليل، يتنقلون في الظلام الدامس بين أسطح بيوت الأغنياء، يسطون على حلي زوجاتهم، ويكسرون خزائن أموالهم، وينقبون حوائط زرائبهم، وينفقون جزءا من حصيلة بيع سرقاتهم في غياهب السجون. حين يقعون في قبضة الشرطة، تخنقهم السجون، ويتوقون إلى أيام الحرية والبراح، فيهربون وتبدأ المطاردة. يشعرون أن الزنازين تناديهم مع كل شهيق وزفير. مع كل كسرة خبز يمضغونها، أو شربة ماء يروون بها ظمأهم، أو رشفة شاي يغوصون معها في همومهم، فيفرون إلى أرض أكثر براحا، لا تصلها الشرطة، ولا تلاحقهم عيون تعرفهم. وليس هناك أفضل من هذه الصحراء الوسيعة كي تطوي أسرارهم. جاءوا إليها بعد أن رموا وراء ظهورهم

دنيا الناس، بحلوها ومرها. هنا حيث تلامس السماء الأرض، وتنير النجوم حبات الرمل، تدفعهم الرياح العاتية إلى غياهب الكهوف. سجون جديدة لكنهم أحرار في الخروج منها ليلا أو نهارا، والوحوش البرية، التي لا تتوقف بحثا عن فريسة، أهون مئات المرات من الوحوش الآدمية، المراوغة المخادعة، التي تذبح وتنهش وهي تبتسم، كأنها تفعل كل ما يقتضيه الحق والعدل والخير والجمال.

***

أسرني عابر السبيل، وهو يحكي عن قصته مع أحد الذئاب؟ كم كان اللقاء مريرا، حين فوجئ وهو يختال ليلا بحريته، بذئب جائع يهاجمه من الخلف. استدار ووكزه بدبشك البندقية فطرحه أرضا. قبل أن يفيق عاجله برصاصة في رأسه، أخذته إلى النسيان. وحين شق القمر طيات الظلمة الحالكة، مد أحد أذرعه المضيئة إلى تلك البقعة المضرجة بالدماء، وفضح آدميا يجلس القرفصاء جنب فريسته.

قال عابر السبيل وهو يبتسم في سخرية معتقة بالمرارة:

ـ في أقل من دقيقة تخلصت منه، لكنني لم أتخلص منذ سنين ممن ظلموني من البشر.

ـ لأن هناك قانونا يحكمنا.

ـ قانون على الضعيف والمحتاج.

ـ صدقت .. لكنك قلت لي أنك كنت تسرق.

ـ كيف عرفت؟.

ـ ألم تقل أن أعداءك هم الحراس.

ـ وهل هذا يعني أنني لص؟.

تذكرت حالي وقلت مؤمنا على حكمته:

- لا.. ليس بالضرورة.

صمت برهة ثم قال:

- لو لم أسرق لمت جوعا.

- إلى هذا الحد؟.

- ماذا تظن برجل مطارد؟.

هززت رأسي وأنا أتابع الأسى في ملامحه المشوشة في بصيص ضوء لا يكشف كثيرا وقلت:

- حقا، المطاردون ليست لديهم فرصة لالتقاط أقواتهم.

- الفرصة الوحيدة أن يخطفوها.

- نعم .. لكن يجب ألا يأخذوا إلا بمقدار ما يسد جوعهم، ولا يقتلون أحدا.

فابتسم قائلا في ثقة:

- هذا ما نفعله.

ثم أردف بعد صمت لم يطل:

- على العموم .. دخلت السجن ظلما.

- بتهمة السرقة؟.

- بل بتهمة القتل، رغم أنني لم أقتل أحدا.

فحملقت في عينيه لأتحرى صدق كلامه وقلت في أسى:

- حكاية غريبة.

فطوح يده في الفراغ، وكأنه يشير إلى الكون برمته وقال:

- الدنيا مملوءة بالغرائب.

(ج)

كـان يجـب أن استيقظ مبكرا قبل أن تصحو العصافير. تهل أسرابها بغتة. تسـقط كالسـهام فـوق سـنابل الشـعير، لتلـتهم مـا تستطيع، وتحمل في أفواهها لصـغارها، ثـم تفر هاربة حين تسقط عليها أحجاري. أقف في منتصف المزرعة، وبجـانبي كومـة مـن الأحجـار والحصـى. معـي قطعة مستديرة من ليف النخيل معلقـة في حبلين طويلين. أضع فيها الحجر، ثم أدفعها للخلف، وأطلقها للأمام باتجاه العصافير.

فتحـت عـيني فرأيـت عابـر السـبيل مطـروحا عـلى ظهره، يغط في سبات عمـيق. تسـللت مـن جـواره حـتى لا أقلقه، وذهبت إلى محاربة العصافير. حين عـدت عند الضحى لأتناول إفطاري، كان لا يزال نائما. غمست إصبعي بهدوء في كتفه فانفتحت عيناه عن آخرهما. حملق في وجهي، ثم ابتسم قائلا:

- صباح الخير يا علي.

- صباح النور يا عم

توقفت فلم أكن أعرف اسمه بعد، فعاودته الابتسامة الرائقة وقال:

- اسمي عوض.

سرت في جسدي طمأنينة أخرى وقلت:

- قم لتفطر يا عم عوض.

جلسـنا حـول إفطارنا البسيط. كسور يابسة من الخبر بللناها بالماء، وجبن قديم، وبصل، وبعض المخلل، والقوطة، وعيدان جرجير منحتها لنا تلك البقعة الطينـية المـنزوية في ركـن المـزرعة. غـرين من الوادي الخصيب أحضرها صاحب

المزرعة ذات يوم. بعد أن فرغنا من الطعام، دفنت براد الشاي في كومة من الحطب، وأشعلت النار. سحب أول رشفة، وقال:

- غدا سيكون الإفطار لحما.

- لحم .. ومن أين لنا باللحم؟.

- خير ربك كثير.

لم يختلف غذاؤنا عن إفطارنا. وحين حل الظلام ارتدى حذاءه، ولف رأسه بالكوفية، ثم التقط بندقيته، وقال:

- سأغيب ساعة.

- إلى أين؟.

- سأحضر شيئا نأكله، وقد يأتي معي ضيف.

- أهلا بك وبضيفك.

انسحب من جانبي، وذاب في الليل، ولم يلبث أن صار قطعة من الظلام. غاب عمي عوض، ولم يعوضني عن غيابه أي شيء. بالأمس كنت خائفا منه، والليلة أنا خائف عليه. خائف ألا يعود، وتغيب معه حكاياته التي لم أسمعها بعد عن أيامه التي ذهبت، ولياليه الحاضرة. وجرفني حنين إلى كلماته الصاخبة التي تقتل الصمت البارد. من فرط حرصي على عدم فراقه، قمت وتبعته خطوة .. خطوة، دون أن يشعر بي، حتى خرج عن حدود المزرعة، وابتلعته الصحراء. عدت سريعا إلى الخص. كانت لمبة الجاز التي تنير ليلي قد أطفأتها موجة ريح صافرة. بحثت عن علبة الثقاب وأضأتها. وضعتها فوق حجر ضخم يوازي موضع وسادتي البالية. أخرجت الكتاب الذي كنت قد بدأت قراءته بالأمس. في رحلة هروبي أحضرته من عند حماد عبد الستار. صديقي

السكندري النبيل. غصت في السطور، أفتش عن نفسي.. عن عالمي الغارق في الألم والبؤس. كنت أسأل الكتب التي ألتهمها سؤالا واحدا:

ـ هل كنت على خطأ؟.. هل كان يجب أن أدفن رأسي في الرمل كما فعل زملائي؟.

اكتفوا بترديد الآية القرآنية: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها"، كانوا يلوون عنقها زورا ليبرروا ضعفهم المهين، ثم يتقاتلون على الفتات الذي يلفظه رئيس مجلس الإدارة. لماذا تخلوا عني في اللحظة الأخيرة، فهربت إلى هذا المكان المهجور؟. ربما لو ساندوني حينها لكنا نجحنا على الأقل في أن نبقى معا بالمدينة. هناك حيث الأحلام التي كانت تكبر مع كل مطلع شمس. لكن ما حدث حدث، وهاأنا وحيد، أجاهد كي أقتل الغصة المتشبثة بحلقي مما فعله بي الزملاء.

كانوا يقابلونني، في وجوههم بشاشة وبشر، وفي كلامهم إيمان بأننا سننتصر. وانتصروا بطريقتهم الخاصة، وداسوا، في صراعهم المقوت، على الحق والضمير، وانضموا في نهاية الطريق إلى زمرة المنافقين واللصوص، الذين يمصون دماء الغلابة، ويحسبون أن تورم أجسادهم جشعا صحة وعافية.

***

لا أنسى ذلك اليوم. استيقظت مبكرا، على صوت هاتف أحدهم. قال لي وهو يفيض حماسة:

ـ صباح النصر.

فقلت له في حماس أكبر من حماسه:

ـ اليوم سيبدأ عهد جديد بالمؤسسة.

خطفت لقمة سريعة، وارتديت ملابسي، وهبطت على الفور، وحشرت نفسي في أول أتوبيس صادفني، أخذني إلى المؤسسة. كان مدخلها يغص بالموظفين، وواجهتها مملوءة عن آخرها بلوحات المرشحين لانتخابات مجلس الإدارة. بين كل اللوحات، كانت هناك لوحة مكتوب عليها بخطين أسود وأزرق عريضين:

"لا للفساد واغتصاب الحقوق"

"لا لسرقة المال العام"

"لا لمعدومي الكفاءة المنافقين"

"نعم لجيل جديد نزيه واع"

كانت هي لوحتي الانتخابية الرئيسية. وفي كل طابق من طوابق المؤسسة العشرين علقت عند المصعد لوحات صغيرة، عليها الشعار نفسه، وقلت في نفسي:

- ضيعتنا المواقف الرمادية.

وجاءني صوت زاحف من أعماقي كالقدر قائلا:

- مع رئيس مجلس إدارة فاسد كهذا لا تنفع سوى المواجهة الصريحة.

حين بدأت عملية التصويت كنت أعتقد أن كل شيء قد بات جاهزا لفوزنا، لكن حين بدأت عملية الفرز، وجدت أن شيئا ما قد حدث. شيء من ذلك النوع الذي يصيبك بالغثيان، ويلقي بك في قيعان بعيدة من المرارة، ويوصد أمامك، بإحكام متناه، كل أبواب الأمل، حتى ولو إلى حين.

كانت مؤامرة، أبطالها رفاق الأمس، كان بعضهم أقرب إلي من نفسي .. هل يخون الأصدقاء بهذه الطريقة البشعة؟ .. هاهي نتيجة الفرز تفضح كل شيء، وتعلن أنني طيلة السنوات السابقة كنت أتكئ على تل هاو من رمل

ساف. تماما مثل التل الذي لا يبتعد عن المزرعة كثيرا، والذي كاد أن يبتلعني في أول يوم جئت فيه إلى هذا المنفى. نجوت منه، لكنني لم أنج من خيانة الصحاب. كانت الانتخابات بالنسبة لي معركة حياة أو موت، ونتيجتها كانت تجيب على مئات الأسئلة المعلقة بيني، أنا الموظف الغاضب، ورئيس مجلس الإدارة، الذي ملأت صناديق البريد شكاوى ضده إلى كبار المسؤولين، ورفعت أمام المحاكم عدة قضايا، وزودت الصحف بمئات الأخبار عن وقائع سرقة المال العام في المؤسسة.

(د)

انشق الظلام عن عم عوض. كان جسده يبدو أضخم كثيرا عما رأيته منذ ساعات، وحين اقترب من الضوء الضعيف النابت من أزاهير اللهب المشتعلة أمامي، اتضح أنه يحمل كيسا ضخما وراء ظهره. ألقى السلام، ثم طرح الكيس أرضا، وقال:

ـ تعالى يا أستاذ أحمد.

وخلص من طيات السواد وجه أسمر لشاب في ربيع عمره. طويل القامة، يرتدي جلبابا أبيض. ابتسم وهو يقترب مني كأنه يعرفني منذ سنين. قمت وصافحته، فشدني إليه، وعانقني وألقى على كتفي قبلتين. قال وهو يدوس في يدي:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكما كان وجه عم عوض مألوفا بالنسبة لي، حين رأيته أول مرة، كانت حركات وكلمات أحمد ليست بعيدة عن ذهني. ولم تكن هيئته وتصرفاته غريبة عليّ، فقد بدا وكأنه واحد من أولئك الذين كانوا مسجونين في الزنزانة المجاورة لتلك التي قضيت فيها فترة سجني العصيبة. كنت أقابلهم في فناء السجن، أتبادل معهم ابتسامات فاترة، تطورت مع تتابع الأيام إلى مصافحات عاجلة، لم تلبث أن أدخلتنا في مناقشات حذرة حول ما كان وما يجب أن يكون. لم يؤد الحوار بيننا إلى تلاقينا لكنه فتح أمام كل منا بابا واسعا على عوالم كانت مجهولة، وحركت أشياء ساكنة في العقول، لكن النفوس بقيت على حالها من التوجس.

أفقت من شرودي على دعوة عم عوض لي بأن أفتح الكيس. تحسسته براحة يدي، فامتلأ قلبي رعبا، وصرخت فيهما:

ـ قتيل؟.

قهقها سويا، وقال أحمد:

ـ قتيل ولكن ليس من البشر.

كان جديا مذبوحا ومسلوخا، وبعض قطع من خشب العنب وساطور. كومنا الخشب فوق اللهب الذي كاد أن يخبو فتوهج. وحين صار جمرات صافية قطعنا اللحم إربا، ووزعناه على جنبات النار، وأخذنا نقلبه يمينا ويسارا، حتى نضج، وطارت رائحته لتغيظ الذئاب الرابضة هناك في جوف الكهوف.

أكلنا حتى امتلأت بطوننا بالطعام، ودسسنا براد الشاي في بقايا النار، وسرت فينا طمأنينة، أيقظت شهوة الكلام. اضطجع عم عوض علي جنبه، وقال:

ـ كانت مغامرة.

فرد عليه أحمد وهو ينظر إلي:

ـ وأي مغامرة.

فألقيت بلساني في غمار الحديث لأفك بعض شفراته، وتساءلت:

ـ عن أي مغامرة تتحدثون؟.

فقالا معا في صوت واحد، كأنهما رتبا الحديث من قبل:

ـ مغامرة العشاء.

ـ مغامرة!.

ـ نعم .. أتظن أن اللحم الذي أكلته منذ برهة، كان من مزرعة أبينا، أو نمتلك نقودا لنشتريه.

ـ سرقتما؟.

قهقه عم عوض وقال:

ـ ليست سرقة.

ـ وماذا تسميها؟.

ـ والله اسأل الأستاذ أحمد.

التفت إليه فقال:

ـ الضرورات يبحن المحظورات.

ـ أي ضرورات؟.

ـ ضرورة الحياة .. لو لم نفعل ذلك لمتنا جوعا.

وهنا تدخل عم عوض ضاحكا:

ـ الأستاذ أحمد قال لي إننا على مذهب الإمام أبو ذر الغفاري.

خامرتني ظنون حول أحمد، ومع الأيام راحت تتكشف لي بعض جوانب شخصيته، حتى صار كتابا مفتوحا أمامي، قرأت بين سطوره المشحونة بالحروف المريرة أشياء عن انكسار الوطن، واغتراب الناس، والبحث الدؤوب عن أي قارب يصمد أمام أمواج هادرة، مثقلة بجثث كل الذين حاولوا أن يصرخوا، ويقولوا شيئا، من قبل، ظانين أنهم قابضون على الحقيقة.

لم يختر أحمد مثلي مؤسسة يناضل فيها ضد الفساد، ويحاول أن يتصدى للاغتيالات المستمرة للأحلام البسيطة، بل رمى نفسه في خضم المجتمع الرحيب. خاصمه، واحتد عليه، وظن أنه يمتلك الحق، وأخلص لرؤيته المباشرة، واعتقاده في مسائل قد يتهاوى بعضها مع توالي الصدمات وتراكم المعرفة.

ـ هل تسرعت؟.

هكذا سألني أحمد يوما، والفجر يدق أبواب الرمال، وقلت له:

ـ المهم أن يتعلم الإنسان من تجاربه.

ـ لكن الثمن كان فادحا.

ـ لست وحدك الذي دفع الثمن.

ـ أعلم أن هناك كثيرين، دفعوا ثمن معتقداتهم، لكن ظروفي جعلت هذا الثمن أضعافا مضاعفة.

ـ ظروفنا جميعا كانت صعبة.

ـ حالتي أنا أصعب مما تتصور.

تغضن وجهه بمسحة حزن، وقال وهو يمد كفيه فوق الجمرات الصافية، بحثا عن دفء:

ـ تركت أما طاعنة في السن، وإخوة صغار.

ـ هل أنت الأخ الأكبر؟.

ـ نعم.

ـ وأين أبوك؟.

ـ توفى منذ سنين.

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون.

ـ لو كان أبي حيا ربما تغير مسار حياتي.

ـ وكان من الممكن ألا يتغير.

ـ لا .. أبي كان حريصا على أن أنال أعلى الدرجات العلمية. فقديما ترك التعليم لأن ظروف أبيه كانت قاهرة، وأراد أن يعوض خسارته، ويهزم بي الدنيا التي أعطته ظهرها.

***

تصاعدت أبخرة الشاي، وامتزجت بدوائر دخان سجائر عم عوض، وخيوط دخان ينسجها اللهب المقبل على الموت. سرى الدفء في عروقنا، وتاه كل منا في همه. عوى ذئب في الظلام فرد عليه ذئب آخر، وارتفعت أصوات العواء وانتشرت وصارت سيمفونية خوف وغربة. وصخبت الريح فحملت معها خفاف الرمل فتعكر الجو، واختنق القمر، الذي كان يجاهد في السماء البعيدة. هاج حقل الشعير وماج، وضربت جوانبه فلقات صغيرة من الحصى، وعلب صفيح قديمة متهالكة من مخلفات أغذية الجيش. هجم بعضها علينا، فهب عم عوض، وأغلق باب الخص، وجرى فلملم الأطراف الحية من النار وكومها. اعترانا خوف عارم من أن ينخلع الخص من مكانه، وتأخذه الريح إلى عمق الصحراء البعيد. لكن عم عوض خفف علينا الوجل حين قال:

- هذه ليست المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة.

- هل هزك الريح من قبل؟.

- مرات ومرات.

- وماذا كنت تفعل؟.

- ألجأ إلى الكهوف.

- وتجد فيها الحماية؟.

- كانت تحمي من العاصفة، لكن كنت أخاف من الذئاب المتربصة والثعابين الرابضة.

لم يستمر غضب الصحراء طويلا، فما لبثت الريح أن صمتت، وصفا الجو بعد أن هطل المطر، ففتحنا باب الخص، وخرجنا نسحب بأنوفنا من الهواء النقي ما وسعنا، ونملأ عيوننا من روعة القمر. جاهد حتى كبر رغم الريح

والسحب، فغمر الصحراء نورا، وازدهت شواشي الشعير. ملأ عم عوض عينيه من مزرعة الشعير وقال:

ـ متى سيأتي صاحبها؟.

ـ بعد أربعة أيام.

ـ وهل ترك لك ما يكفيك من زاد؟.

ـ الحمد لله.

تفحصني مليا وقال:

ـ لا تترك له من أجرك مليما واحدا .. إنه رجل بخيل.

ـ أتعرفه؟.

ـ حدثني عنه خلفان وسويلم كثيرا.

ـ صاحباك البدويان.

ـ نعم.

ـ هل هو يعرفك؟.

ـ يتصور العمى ولا يراني.

ـ أيكرهك إلى هذا الحد؟.

ـ طبعا.

وانخرط أحمد في الحديث قائلا:

ـ هذه حكاية أعرفها جيدا .. طالما قصها عم عوض، وأعتقد أنه قد مل من سردها.

ـ احكها أنت يا أستاذ أحمد.

***

كان عم عوض جديدا على الصحراء، فوقتها لم يكن له بها وطن أو سكن. طاردته الشرطة حتى كاد أن يسقط في فكاكها، لكنه مثلي لاذ بالصحراء. راح يتوغل فيها ما وسعه حتى اطمأن إلى كهف احتوى خوفه، وأفسح الطريق لتعب المطاردة، فثقل رأسه، وارتخت عضلاته، فنام. نام وأبحر حتى قذفته الكوابيس إلى ساعات الخوف مرة أخرى. كان جائعا أشد ما يكون الجوع، ظامئا أقسى ما يكون الظمأ. خرج من الكهف، وطاف بعينيه فإذا بالدنيا ليل في ليل. جبال متلاطمة من السواد لا حدود لها. قال في نفسه: هربت من الشرطة، ووقعت في فخ الجوع والذعر.

لكن أمله ما لبث أن تجدد، حين لمح في أقصى حدود الظلام ارتعاشة صفراء لضوء ذابل، يكاد أن يموت. مشى نحو الضوء وهو يمني نفسه بنجع ملقى في مجاهل الصحراء، أو كوخ ضال، كفر صاحبه بالناس، فاختلى بنفسه بين جدران لا يحيطها سوى الصمت والسكينة. كان يمشي متثاقلا. قدماه منهكتان من جري الأمس، لكن الضوء كان يقترب بسرعة، ويتحرك في تعرجات، يختفي خلف تباب الرمل، ثم يظهر ويزدهي.

وجد عم عوض مدقا معبدا فاعتلى صهوته، فإذا بالضوء يواجهه. راح يكبر .. يكبر حتى ملأ عينيه. كانت عربة نقل صغيرة، يركبها صاحب المزرعة. أشار لها عم عوض لكنها زادت من سرعتها، وشحرت لتختفي هناك أسفل إحدى التباب. لم تبتعد كثيرا، ثم انطفأ نورها، وخمد صوتها. استدار عم عوض وهم باتجاه المكان الذي وقفت فيه العربة، حتى انتهى به المطاف إلي هذه المزرعة. مكث غير بعيد يراقب، فأدرك أنه ليس هناك سوى رجلين يجلسان داخل الخص، الذي نحن فيه الآن. مشى على أطراف أصابعه حتى وصل إلى العربة، قفز داخلها ثم راح يفتش في جنباتها، فوجد طعاما داخل

كـيس. رفعـه ثـم هـبط وانبعـث في الظـلام. عـند الحـد الـذي يفصـل المزرعة عن الصحراء جلس وفتح الكيس وراح يزدرد بعض الطعام، فعادت إلى جسده القوة، وقال لنفسه: أنام الليلة بين سيقان الشعير، وعند الصباح أفتش عن مأوى في هذا المـنفى. تكاثرت عليه متاعب النهار فسقط في نوم عميق، لكنه هب مذعورا حين سمـع صـراخا يـنداح في اللـيل، وجؤار معذب لرجل يواجه عدوا شرسا. قفز من رقدتـه وتوجـه نحـو مصدر الصراخ، حتى خلصت له في الضوء الشحيح المنبعث مـن لـمبة الكيروسـين الرابضـة في زاوية الخص معالم رجلين يتقاتلان. كان كاظم مـناع صاحب المزرعة يضرب بشدة شابا نحيفا، يترنح بين يديه، ويتـهاوى على الأرض، ثم يعافر، ويقاوم، ويهب ليمسك بعنق خصمه، لكنه لا يلبث أن يسقط من جديد. يصرخ فيه كاظم:

ـ سرقت الأكل يا ابن الكلب؟.

فيرد الشاب بحرقة:

ـ والله العظيم ما سرقته.

ـ لكنك تركتني في الخص وخرجت.

ـ ذهبت لقضاء حاجتي في الخلاء.

ـ بل أخفيت قوت أولادي، وستحضره الآن أو تموت.

ـ لم يحدث.

ـ كنت سأعطيك منه.

ـ ولما أسرقه إذن؟.

ـ لتبيعه.

ـ أبيعه لمن في هذا الصحراء؟.

ـ للبدو.

حـين كـان عـم عـوض يسـرع ناحيتـهما، كان صاحب المزرعة يدوس بقدمه عنق الشاب، ويكاد أن يجهز عليه.

يضحك عم عوض ويقول:

- قفزت على كاظم وضربته حتى سقط غارقا في دمائه، وصرخ الشاب وقال:

- مات؟.

فقلت له:

- ندفنه.

فقال:

- أهله يعرفونني.

- الرمال تواري آلاف الجثث.

ويكمـل أحمـد في صوت حـزين خفيض: قبل أن يتحرك عم عوض والشاب تأوه الرجل فعرفا أنه لا يزال على قيد الحياة. جرى الشاب نحو الخص ، وعاد وفي يـده إبـريق المـاء، وصـب على وجهه، فامتزج الماء بالدم، وارتعشت أطراف الرجل، ثم راح رويدا رويدا يفتح عينيه. جثا عم عوض على ركبتيه وقال له:

- هذا جزاء ما فعلته بالشاب المسكين.

- من أنت؟.

- أنا الذي تركته في الطريق وكأنه حجر ملقى أمامك.

- وماذا تريد؟

- لا أريد أن أراك في هذا المكان مرة أخرى وإلا قتلتك.

- قاطع طريق؟.

- بل قاتل لأمثالك.

- أنت لص.

ـ وأنت جبان.

وقال الشاب:

ـ وبخيل وظالم .. أكل عرقي.

وصرخ فيه عم عوض:

ـ هات أجر الشاب.

ـ وما لك أنت؟.

ـ هات بسرعة وإلا جعلتك تحفر قبرك بيديك هنا.

والتفت نحو الشاب قائلا:

ـ كم أجرك؟.

فقال والفرح يكسو وجهه:

ـ أعمل هنا منذ ستة أشهر وأجري مائة جنيه في الشهر.

ـ هذا قليل.

ـ يؤكلني.

ـ حتى ولو .. هذا قليل.

وصرخ صاحب المزرعة متوسلا:

ـ اتفقت أنا وهو على ذلك، ولا أربح كثيرا من الشعير.

فوكزه عم عوض في كتفه وقال:

ـ اعطه ألف جنيه.

ـ هذا كثير جدا.

ـ بل قليل جدا على عمله وغربته في هذا المكان البعيد.

ـ من أين جئت لنا أنت؟.

ـ من بلاد مليئة بأمثالك.

صمت صاحب المزرعة برهة وقال:

- ليس معي نقود الآن.

فقال له عم عوض:

- نفتشك.

يقول عم عوض مسترجعا هذه اللحظة كأنه يعيشها الآن:

- فتشت حافظته فوجدت نقودا كثيرة. أخذت الألف جنيه وقلت له:

- اذهب ولا أراك هنا مرة أخرى.

ومنذ هذه اللحظة وصاحب المزرعة لا يجرؤ على التفكير في أن يأتي هذا المكان ليلا.

(هـ)

أيقظت حكاية صاحب المزرعة في نفسي حكاية أخرى. لا ..لم توقظها، لأنها حية، تدب في شراييني، لم تخمد ولن تموت. إنها حكاية مراد غالب، صاحب المؤسسة. إنه ليس صاحبها، فهي ليست ملكه قانونا، لكنه بالفعل المتحكم في أمرها وكأنه قد ورثها عن أبيه، ونحن أجراء في مزارعه، أو خدم في مسكنه الفخيم، وعلى أحسن حال نكون خفرا على تركته الحرام.

كان قبل عقود طفلا عاديا كملايين الأطفال، الذين تقذفهم أرحام نساء مصر الخصبة، وربما كان أقل من العادي، لكنه لم يكن صبيا عاديا. امتلك مهارة لا تضارع في الخسة والنذالة والنفاق. كان عميلا لمباحث أمن الدولة أيام الجامعة، وأمدها بتقارير وافية عن زملائه. كان عضوا في كل التنظيمات السياسية، بعد أن تسلح بقشور عن أفكارها ومبادئها. تجده في المساء بمسجد يتضرع إلى الله مع الإخوان المسلمين، ويقول بملء فيه: "الإسلام دين ودولة. مصحف وسيف.. ". ويهمس في آذانهم متصنعا الخشوع والإخلاص:

ـ أحلم بدولة الخلافة.

فيشدون على يديه:

ـ إن غدا لناظره قريب.

يحملق في وجوههم ويقول:

ـ ستكون من المغرب إلى ماليزيا.

فيردون عليه في ثقة متناهية:

ـ وستعيد إلينا أيام أسلافنا العظام.

فيتصنع الخشوع الممزوج بصرامة الاعتقاد ويقول:

- إن شاء الله.

في الصباح يجلس على المقاهي مع الشيوعيين يتحدث في سطحية عن المادية الجدلية، ويحلم بالانتصار الساحق للبروليتاريا. ويقول للرفاق ضاحكا:

- أنا أعتز بانتمائي إلى البروليتاريا الرثة.

ويقولون هم حين يتركهم:

- رفيق واعد، ينقصه الوعي الكافي، لكنه سيحصله يوما ما.

وحين يستشعر الهوة المعرفية بينه وكبارهم، يقول لهم في تودد وانكسار:

- أنتم أساتذتي.

فتنتفخ أوداجهم زهوا، ويتملكهم إحساس زائف بامتلاك الحقيقة، ويربتون على كتفه:

- غدا ستصبح كادرا مهما.

عند الظهر يكون جالسا خلف المسؤولين في الاتحاد الاشتراكي يسمع أحاديث عن الشيوعيين "الخونة" والإخوان "المتآمرين"، ثم ينطلق بما لديه من معلومات إلى أجهزة الأمن، مزهوا بقدرته على خداع الجميع. يودعه الضباط وهم يتهامسون بينهم:

- انتهازي ووصولي لكن الاستغناء عن خدماته ليس سهلا الآن.

بعد أن تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة عمل في وظيفة إدارية بإحدى شركات المقاولات دون أن يفقد حبله السري مع المباحث. ولأنه يعرف من أين تؤكل الكتف قفزت به سنوات قصار إلى أعلى الدرجات الوظيفية، وصار رئيس مجلس إدارة الشركة. وحين تمكن في مقعده أحاط نفسه بحاشية فاسدة من

موظفين عديمي القدرات، ضعاف النفوس. وراح ينكل بكل من يجرؤ ويرفع رأسه في وجهه.

***

آه .. ما أتعس أيامي. ترميني من لص إلى لص. وأنا القابض على شئ مما علمه لي أبي، وما حفرته في ذهني سطور الكتب التي أسرتني ليالي طويلة، أتعذب كل لحظة بحكايات عن البشر المظلومين، والوطن الضائع.

في يوم مثل هذا اليوم تماما بدأت المعركة. كنت مسلحا بالغيرة على مصلحة المؤسسة، والنية الطيبة، والخوف على ضياع حقوق العاملين. وكان خصمي مسلحا بتراث طويل من جبروت الفاسدين، والقوانين التي فصلوها على مقاسهم، وأيادي المتطلعين إلى غنيمة، والخائفين على الفتات الذي يقتات منه أولادهم.

كان يوم سبت، حين قال لي عم عطية وهو يضع الأوراق على مكتبي:

ـ البيه رجع من باريس.

ـ تقصد من؟.

ـ وهل هناك بيه في هذا المكان سوى مراد غالب.

ـ كل يوم في بلد.

ـ هذه المرة عاد محملا بهدايا أكثر.

ـ هل يسمح مرتبه بكل هذه الهدايا التي يجلبها معه من الشرق والغرب؟.

ـ مرتب .. أنت طيب يا أستاذ. كل فواتير المشتريات على حساب المؤسسة، علاوة على بدل السفر الضخم جدا.

ـ كل الفواتير؟.

ـ حتى "سوتيانات" السيدة حرمه، وأطقمها الداخلية الأخرى على حساب المؤسسة.

ـ إذا كانت بالمؤسسة أموال تسمح له بكل هذا فلماذا يؤخر الأرباح السنوية المستحقة لنا؟

ـ يستثمر أموالها في البنوك، والفوائد له ولذيوله.

لم يكن عم عطية ساعيا عاديا. كان يجيد القراءة والكتابة. يتابع الصحف يوما بيوم، ويحضر أحيانا مؤتمرات أحزاب المعارضة، دون أن ينضم إلى أي منها. وتراه في بعض الأحيان يرتاد ندوات المثقفين. ولوعيه رشحه زملاؤه، من السعاة وعمال النظافة وغيرهم، في انتخابات مجلس الإدارة. فاز بأحد مقاعد المجلس، لكنه لم يلبث أن قدم استقالته بعد أن أيقن أن صوتا واحدا لا يكفي لمقاومة عصابة من اللصوص والمحتالين، وأن بقاءه في المجلس سيضر سمعته أكثر مما يفيده. هكذا حسبها عم عطية، وقال للعاملين والموظفين:

ـ مكاني هو اللجنة النقابية.

ودخل الانتخابات وفاز مرة أخرى. لكن مراد غالب جمد نشاط اللجنة، وراح يطلق أذنابه يلوثون سمعة أعضائها. وفاض الكيل بعم عطية، فقال لزملائه:

ـ نتسلح بالناس والقانون.

وذهبوا جميعا ذات صباح إلى مقر النقابة العامة للعاملين. قابلوا النقيب لكنه لم يسعفهم بشيء. وصرخ عم عطية في وجهه:

ـ أنت معنا أم مع رجال السلطة.

لكن الأيام مرت دون جدوى. ولم يجد عم عطية ورفاقه بدا من إعلان اعتصام مفتوح في مقر النقابة العامة، تردد صداه في المؤسسة زمنا طويلا. لكن

بعض الأعضاء لم يقو على فراق أهل بيته فعاد إليهم مطأطأ الرأس. بعضهم تسلل الخوف إلى نفسه على مستقبله الوظيفي، فرجع إلى المؤسسة ذليلا. آخرون لوح لهم غالب بالمنح والعلاوات فسال لعابهم من مبنى النقابة إلى باب مكتب رئيس مجلس الإدارة. لم يبق سوى عم عطية. شهر كامل مر عليه وهو صامد. رفض المساومات، وراح يعيد مطالب اللجنة النقابية على أسماع قلة من الصحفيين وصل خبره إلى أسماعهم فجاءوا إليه مهرولين. بعض الصحف نشرت الموضوع، وبعضها أحجم عن النشر. لكن ما نشر على قلته هز قلب غالب، لأنه يعلم جيدا أن أولياء نعمته يأخذون كل حين أحد الفاسدين كبش فداء، ليوهموا الناس أنهم نظيفو الأيادي. وهمس غالب في آذان أقرب المقربين إليه قائلا:

ـ لو طال اعتصام عطية ستصبح حكايته على صفحات جرائد كثيرة، ووقتها قد يضيع المنصب الذي انتظره وكرست له كل حياتي.

ـ وما الحل؟.

ـ سأعيد اللجنة النقابية.

وعاد عم عطية إلى المؤسسة صبحا، كما خرج منها صبحا، ومئات العيون تفيض إعجابا به. ألسن قليلة تجرأت وحيته جهارا. على استحياء شديد جاء إليه بقية أعضاء اللجنة، ومكثوا معه يقاومون فساد رئيس مجلس الإدارة قدر استطاعتهم، حتى انقضت المدة القانونية لها.

وحين فتح باب الترشيح لعضوية اللجنة الجديدة، اعتذر عم عطية لمرضه، وقال لمن ذهبوا إلى منزله، ليطلبوا منه خوض الانتخابات:

ـ قد لا يزول المرض عني قريبا، والانتخابات وما بعدها تحتاج إلى شراسة لم أعد قادرا عليها.

لكن عم عطية لم يصمت. كان دائما يطلق العنان للسانه من مكتب إلى آخر وهو يحمل الأوراق إلى الموظفين، فتنبت الجرأة شيئا فشيئا في قلوب المنكمشين وراء مكاتبهم الصدئة.

أول يوم تم فيه تعييني بالمؤسسة سمعته يتحدث، فملأ قلبي وعقلي، وقلت لنفسي:

- ربما يأتي الإصلاح في ركاب البسطاء.

ومع الأيام صرت صديقه الصغير. ولأنه موظف قديم بالمؤسسة، ونافذ في أعماق مختلف إداراتها، كان يأتيني كل حين وآخر بأخبار جديدة.

خبر بخبر صرت حانقا على الأحوال. ويوم بيوم راح هذا الحنق يتسرب في كلامي المفعم بالمرارة والاحتجاج على أوضاع المؤسسة. وحين تخطاني من هم دوني تفانيًا في العمل، وقدرة على العطاء، صار الحنق ثورة عارمة، انتهت بي مرات ومرات إلى مكتب التحقيق. وحين كنت أذهب لتقاضي راتبي البسيط أجد نتيجة هذه التحقيقات واضحة. خصم وراء خصم، ومكافآت تجاوزتني. وازدادت الضغوط علي ودفعتني بقوة إعصار هادر إلى ترشيح نفسي في انتخابات مجلس الإدارة. وتهللت أسارير عم عطية وقال وهو يشد على يدي:

- أنت لها.

لم أكن بمفردي. مع مرور الأيام تقارب المظلومون، وصرنا مجموعة شباب محتج. كنا نخرج بعد انقضاء ساعات العمل لتناول الغذاء في مطعم بميدان العباسية. نجلس بعد الغذاء على مقهى بجوار المطعم مباشرة. نرتشف الشاي، ونحتسي القهوة، وندخن النرجيلة، ونثرثر كثيرا عن أحوال المؤسسة. وأحيانا يأخذنا الحديث إلى البنات اللائي نحبهن، الكتب التي نقرأها، والناس الذين نمر بهم في شوارع القاهرة المزدحمة دون أن يلقوا لنا بالا.

كان يوم اثنين حين قلت للأصدقاء:

ـ قررت أن أدخل انتخابات مجلس الإدارة.

قهقهوا جميعا، وقال لطيف المناديلي:

ـ أخيرا سيكون لنا ظهر في مجلس الإدارة.

ورد عليه خليل علوان:

ـ من له ظهر لا يضرب على بطنه.

لكنهم توقفوا عن المزاح حين رأوا مسحة غضب ترتسم على وجهي. وقال رفعت زيدان مهدئا الموقف:

ـ سنقف وراءك.

تطلعت إلى وجوههم وقلت:

ـ لا أريد أن أكون بمفردي.

حملقوا في عيني وهموا بالتساؤل، فأردفت:

ـ سندخل الانتخابات مجموعة.

ـ مجموعة؟.

ـ الاتحاد قوة.

وقال زيدان:

ـ ألا يكفيك أن نساندك؟.

أخذت نفسا طويلا من النرجيلة وقلت له وعيناي ذاهبتان إلى آخر نقطة في الميدان الفسيح:

ـ نريد أن نحصد أكبر عدد من المقاعد.

(و)

اصفرت أوراق الشعير وحل موسم الحصاد. ذات صبح لاحت هناك على المدق عربة نصف نقل مملوءة برجال يغنون. كانت أناشيدهم تقترب شيئا فشيئا، فتبعث الحياة في قلب الرمل، ورؤوس الصخر النائمة على تاريخ طويل من التجاهل والنسيان.

توقفت أمام الخص، ونزل صاحب المزرعة، وأشار لعشرة رجال مدججين بالمناجل فقفزوا مطيعين. قال لهم ويده ذاهبة إلى آخر نقطة في المزرعة:

ـ هاهو الشعير.

ثم التفت إلي وقال:

ـ كن معهم حتى تنتهوا من الحصاد.

هجم الرجال على الشعير فراح يتكوم وراءهم صريع مناجلهم المسنونة. كانوا يعملون بجد لينجزوا أعمالهم قبل أن تشتد حرارة الشمس، ويصبح الحصاد صعبا. كنت أود أن أستمهلهم حتى يمكثوا معي أطول فترة ممكنة. فمنذ أيام لم أر عم عوض وأحمد ، والوحدة كادت أن تمزقني. كان من الصعب علي أن أطلب منهم التباطؤ في العمل وأنا المكلف بمتابعتهم وحضهم على الحصاد بنشاط وجد. لكن حين قطع المنجل إصبع واحد منهم، وتناثر الدم على أوراق الشعير، قلت لهم:

ـ كفاكم عملا اليوم.

مر الرجال بين أكوام الشعير لاهثين، حتى انتهوا إلى الخص، فاستلقوا على ظهورهم، ليستردوا أنفاسهم المقطوعة، ثم قاموا إلى الطعام. افترشوا

الأرض، وتحلقوا حول مشنة مستديرة من الخوص. خبز، جبن قديم، بصل، مخللات، ونفوس راضية، وبطون خاوية. لقمة بلقمة والشاي يغلي على نار الحطب، وينثر بخاره الدافئ في جنبات المكان.

رشفة برشفة، ودخان سجائر يخالط الأبخرة، وشرود في بحار صفراء من رمال لا نهاية لها، وعيون معلقة بأكوام شعير متراصة تشهد على كدح الرجال منذ بصيص النور الأول ليوم حار حتى جرح عبد الغفور الغائر. قال له مجاهد:

ـ قم وتبول على جرحك وراء الخص.

انسل من بين الأجساد واختفى وراء البوص والجريد تلاحقه ضحكات سلامة وهو يقول:

ـ ميكروكروم الغلابة المنفيين.

***

عشرة رجال لفظتهم قرى نائمة هناك في أقاصي الصعيد، وشمال دلتا مصر الخصيبة. جاءوا إلى هنا. إلى حقل شعير نضج، صاحبه جشع، يجمع عرقهم النقي أموالا في جيبه المملوء بالفلوس الحرام. أقسم عم عوض أن هذا الرجل تاجر مخدرات، وأنه كان يزرع الحشيش والأفيون وسط الشعير، لكنه كف عن ذلك حين شعر أن عيون الشرطة بدأت ترصده. وقرأ في عيني شيئا حسبه شكا فقال:

ـ خلفان وسويلم أكدا هذا، وهم من قبيلته ويعرفونه جيدا.

وخز كلامه قلبي، فانتفض هلعا، وسألته في خوف:

ـ هل تصل الشرطة إلى هذا المكان؟

فتملكه خوفي وقال:

ـ ربما هناك في مرسى مطروح وليس هنا.

فأمنت على رأيه قائلا:

ـ لا يوجد أحد في هذا المكان النائي غيرنا.

ـ يوجد البدو.

ـ لم أقابل أحدا منهم حتى الآن.

ـ ستقابلهم قريبا.

أكل الرجال حتى شبعوا، ثم أغرقهم تعبهم في سبات عميق. حل العصر، وترامت شمسه البرتقالية على جنبات الخص، فاستيقظوا. فرك سلامة عينيه وقال:

ـ نلعب سيجة.

على الفور تحلقوا حول عبد الغفور وقالوا:

ـ العب حتى تنسى ألمك.

فابتسم في مرارة وقال:

ـ اللعب لا يزيح الألم، إنما فرح عيالي بعودتي إليهم بملابس جديدة، أو طعام لذيذ.

فمازحه سلامة:

ـ أنت الذي جنيت على نفسك وتزوجت امرأتين.

ـ الأولى كانت تخلف بنات، فقلت أتزوج من تأتي بالولد، فأصبح عندي سبع بنات وولد واحد خلفته المرأة الأولى.

وضحك عبد الوهاب الجهيني وقال:

ـ لو كنت اكتفيت بالأولى كان أحسن.

ـ أنا لا أعلم الغيب.

وتدخل يوسف في الحديث بعد صمت طويل وقال:

ـ تحديد نوع الجنين، ذكر أم أنثى، مسؤولية الرجل وحده. هذا رأي العلم.

فرد عليه عبد الغفور:

ـ أنا رجل أمي.

وألقى خيري القليني نفسه في غمار الكلام:

ـ حكاية عبد الغفور ذكرتني بشي مهم.

ـ ما هو؟

ـ الأجرة.. صاحب المزرعة لم يعطنا شيئا.

فرد عبد الغفور ممنيا نفسه:

ـ الرجل لن يأكل عرقنا.

طفت بوجوه الرجال الحائرين وقلت لهم:

ـ حين يأتي في الغد طالبوه بأجوركم.

نظروا إلى صفحة وجهي، وقرؤوا بعيني بعض ما في نفسي وقالوا:

ـ إن شاء الله.

* * *

غابت الشمس خلف التلال، وغطى الظلام وجوه الرجال فراحوا يبثون في العتمة حكايات من ماضيهم البعيد والقريب عن العيال والزوجات المنتظرات على مشارف الأمل في لقمة حلال، وجلباب يرتديه الفرح، وجسد مشتاق لم ينل الكدح من رغبته.

أنا رميت نفسي قدر استطاعتي في الصمت، وتركت لأذني العنان لتنهل من حكايات الرجال، التي تعينني على حالي، وتزيد من صبري على الأيام.

وحين اختلى بي يوسف أبو السعد قص علي حكاية أيقظت في نفسي حكايات. ربما أتعبه الصمت، ووجد في صحبتي ما يسري عنه. راح يهذي وهو يحملق في قطعة من السماء تطل من باب الخص:

ـ كانت حلوة، وكنت أعشقها أكثر مما عشق رجل امرأة من قبل، لكنها ذهبت وتلك هي الأقدار.

ـ ماتت؟.

ـ بالنسبة لي، أما بالنسبة له فهي حية ترزق.

ـ من؟.

ـ عدوي .. صديقي القديم.

ـ أهذا لغز؟.

ـ كنا صديقين، لكنه أخذها مني فصرنا عدوين لدودين.

ـ يا لضيعة الصداقة.

ـ أصعب شيء على النفس خيانة من كنا نحسبهم أصدقاءنا.

تذكرت صديقي الحميم حماد عبد الستار، وقلت له:

ـ هناك صداقات لا ينال منها الزمن.

ـ هكذا كنت أظن ما بيني وصاحبي حتى جاء اليوم المشؤوم.

ـ يوم أن ضاعت منك المحبوبة؟.

ـ بل يوم أن بحت له بأسرار عشقي.

ـ هذا أمر طبيعي بين صديقين.

ـ لكنني أخطأت.

ـ البوح للأصدقاء ليس خطأ.

ـ حكيت له أدق تفاصيل علاقتي بها، وفضت في وصف محاسنها، فوجد كلامي قلبا خاليا، ونفسا رديئة، فوقع في غرامها.

ـ حتى لو أحبها، وهذا قد يكون رغما عنه، فقد كان من الواجب أن يضحي من أجلك.

ـ بل تحول إلى كلب مسعور. نهش سمعتي أمامها، مستغلا أسرارا قديمة كان يعرفها عني. ويوم بيوم حل الجفاء.

ـ كرهتك وأحبته؟.

تغضن وجهه بغضب مكتوم وقال:

ـ حاولت كراهيتي ولم تحبه.

ـ لكنك قلت أنها صارت له.

ـ جسدا، لكنني واثق من أنها لم تنس أيامي معها.

ـ هذا ما يعزي به العاشقون أنفسهم.

ـ لا تكن قاسيا علي. أنا واثق مما أقوله لك.

ـ لما تركتك إذن؟.

ـ قبلها كانت لي علاقات نسائية غير شريفة، لكنني لم أحب سواها.

ـ الحب يغفر أحيانا، أو من الضروري أن يكون هكذا.

ـ هناك ظروف أخرى.

ـ مادية؟.

ـ كان هو ميسور الحال، أما أنا فكما ترى، حاصل على معهد تعاون زراعي وعامل تراحيل.

ـ كثيرا ما أفسدت النساء ما بين الرجال من علاقات حميمة.

ـ لكن أحسب أنه لا يوجد في هذا العالم من هو أتعس مني.

ـ ليس إلى هذا الحد. صبرا والأيام كفيلة بالنسيان.

ـ نسيان!.

ـ العشق دواؤه الزمن، والحزن يصغر مع مرور الساعات.

ـ كلما تذكرتها شب في نفسي ألم لا يطاق.

ـ يبدو أنك تلقيت الصدمة قريبا.

ـ قبل مجيئي إلى هنا بأيام.

ـ هو هروب إذن؟.

ـ تركت لهما المكان، حتى لا أموت كمدا.

صمت برهة ثم قال:

ـ شغلتك بحكايتي.

ـ لا تقل هذا. نحن زملاء، وقد نصير أصدقاء.

ـ أصدقاء مرة أخرى.

ـ لا تترك تجربتك تجعلك تكفر بكل شيء.

لفنا الخلاء وسرنا واجمين، وكل منا يفكر في حاله. فجأة أخرجني يوسف من شرودي حين قال:

ـ وما حكايتك أنت؟.

ـ أية حكاية تقصد؟.

ـ حكايتك مع المحبوبة.

ـ وإن قلت لك ليست هناك حكاية؟.

ـ لا أصدق. لكل منا قصة حب.

ـ عموما. لست أحسن حظا منك.

ـ تزوجت صديقك أيضا؟.

ـ يبدو أنك فقدت اليقين.

ـ أين ذهبت إذن؟.

ـ لا أعرف عنها شيئا.

ـ هذا أفضل.

ـ ربما..

ـ من القسوة أن تظل حبيبتك أمامك وأنت تعلم أنك قد لا تحظى بالوصال طوال العمر.

وأردت أن أغير دفة الحديث فعاجلته قائلا:

ـ والأشد قسوة ألا تكون قادرا على اختيار المكان الذي تعيش فيه.

لكنه أعادني إلى الموضوع مرة أخرى حين رد:

ـ حيث لا يوجد غريمي تستريح نفسي.

ـ لكن مهما طال بك الزمن فسترجع يوما ما إلى قريتك.

ـ يومها أكون قد شفيت منها تماما.

ـ وتكون قد دفنت أحقادك هنا في بحار الرمال.

تاه في لحظة عميقة من التأمل الأليم وقال:

ـ أخشى أن أحملها معي إلى هناك.

أخذنا الحديث إلى بعيد ونحن نسير على المدق المنتهي بربوة صغيرة، فرش الظلام عليها رداءه القاتم وغطاها تماما، وصارت قطعة من الليل الزاحف بقوة على الصحراء. عوى ذئب من بعيد فقال يوسف:

ـ لنعد.

وعدنا وصوت آذان العشاء ينبعث من الخص، وينطلق في الأرض الخلاء والسماوات المطرزة بنجوم قليلة لا يقوى ضوؤها الشحيح على قتل الظلام، ويصل

إلى الوحـوش الرابضـة في جحورها والطيور التي استكانت في أعشاشها الحجرية عـلى الـربا القريـبة، فـتعرف هـذه الكائنات أن هناك كائنات أخرى تؤنسها في هذا المكان الموحش.

كان صوت إسماعيل عبد المؤمن، طالب في السنة الثالثة بكلية أصول الدين، جامعـة الأزهـر. جـاء إلى هـنا ليجمع مصروفات السنة الدراسية الأخيرة، التي سيبدأ بعدها معركته الفاصلة ضد البطالة، وفي سبيل أمه الطاعنة في السن وأخيه الصـغير. حـين كـان الـرجال يـتحلقون حـول السـيجة كـان هو يأخذ جانبا من الخص ويخرج من حقيبة جلدية قديمة مصحفا، وتسلسل عقيرته بتلاوة عذبة، طالما لانت لها قلوب الرجال فتركوا اللعب وخروا سامعين. في أول يوم جاء فيه إلى هنا قام وعلق جلبابه على عصا طويلة، وقال:

ـ حـين ينحسـر الظـل ويـرقد تحـت الجلـباب مباشـرة تكـون الشـمس في منتصف السماء وعندها نصلي الظهر.

وضحك سلامة وقال:

ـ لدينا ساعات.

فرد عليه إسماعيل مبتسما:

ـ لكننا لا نعرف موعد آذان الظهر بالضبط في هذه الأرض البعيدة.

لكن سلامة استعاد ولعه بالجدل في كل شيء، وقال له:

ـ عند صلاة العشاء لن تكون هناك شمس.

وكانت الإجابة حاضرة لدى إسماعيل فرد سريعا:

ـ أقدر وقتها بالنجوم.

وخرج يوسف من كآبته وقال مازحا:

ـ يبدو أنك كنت بحارا أو قصاص أثر.

وكان اليوم الثالث لمجيء الرجال هو يوم جمعة، فقالوا لإسماعيل:

- استعد لخطبة صلاة الجمعة.

فقال لهم:

- الجمعة لا تصح إلا باثني عشر شخصا على الأقل.

عند الضحى هل علينا صاحب المزرعة يسبقه غبار عربته وشحيرها المزعج وهي تعبر الحفر المتتابعة على المدق. ولما رآه إسماعيل قادما من بعيد قال:

- اكتملت الجمعة.

فرد عليه سلامة:

- وما يدريك .. لعله لا يصلي.

جاء الرجال بأحجار كبيرة ووضعوها ناحية القبلة، واعتلاها إسماعيل وألقى خطبة عصماء عن "الإسلام والعمل"، مستدعيا، دون أن يبوح بذلك ولو بجملة واحدة في كلامه، الحوار اليائس الذي دار بين الرجال وصاحب المزرعة قبل الصلاة. أسهب في شرح حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه".

لكن عرق الرجال سال وجف مرات ومرات دون أن يأخذوا من صاحب المزرعة شيئا. قال لهم حين ضيقوا الخناق عليه:

- عملكم هنا لن ينتهي الآن .. بعد الحصاد سنبدأ في استصلاح أرض جديدة، فلا تستعجلوا أجوركم.

وصبر الرجال حتى فرغوا من الحصاد تماما، وجاءت ماكينات الدريس، ففصلت الشعير عن التبن، وراكمته كومة عالية. ولما رأى كاظم الشعير يسيل على جنبات الكومة، ويخرج عن حدود المفرش الكبير الذي وضعه خلف الدراسة، قال للرجال:

ـ ضعوا الشعير في الأجولة.

فرد عليه عبد الغفور:

ـ البكاء على رأس الميت.

ولم يفهم صاحب المزرعة ماذا تعنيه هذه العبارة. فقال له:

ـ ماذا تقصد؟.

ـ نأخذ أجورنا أولا.

وتكاتف الرجال عليه فرضخ على مضض وقال:

ـ بعد ساعتين سيأتي تاجر لشراء الشعير، وعندها ستحصلون على أجوركم.

وجاء تاجران، الأول اشترى الشعير، والثاني اشترى المزرعة. صافح كاظم صاحب المزرعة الجديد بسرعة ثم التفت إليّ قائلا:

ـ وصيت الحاج عبود عليك .. لا تقلق.

وتحلقنا حول الحاج عبود، وأطلت علينا من خلف التباب البعيدة علامات عهد جديد، حين لاحت الجرافات على المدقات تزمجر، وتدوس الحصى والرمل. تثير حولها غبارا يتطاير هناك في الأفق الساخن، ويذوب في الهواء المسافر إلى البلاد البعيدة.

(ز)

غنى الرجال وهم يجمعون الأحجار الصغيرة وراء الجرافات وهي تعارك الأرض، وتترك خلفها موجات متلاحقة من تربة بكر تتوق إلى الغرس. كانت أغاني متتالية. كلما انتهت واحدة، بدأت أخرى. والرجال لا تتعب عقائرهم المشبوبة بالحنين، ولا أرجلهم التي تغوص في الرمال. صاحب المزرعة الجديد يقف وراءهم مبتسما وعيناه تطلان من حين إلى آخر على الأفق البعيد، وكأنه يقول لنفسه:

- رحلة الاستصلاح ستمتد حتى أطوي كل هذه الأرض في قبضة يدي.

وهاهو حلمه تحققه السكاكين السميكة الحادة للجرافات، ومعاول الرجال التي تضرب الرمل دون هوادة. كان بدويا من منطقة تدعى بئر حسي القطار، شمال غرب منخفض القطارة، لكنه سكن مدنية السلوم، بعد أن تخرج في المعهد العالي للتعاون الزراعي، الكائن بشبرا الخيمة في القاهرة الكبرى. باع كل ما ورثه عن أبيه من أجل شراء المزرعة واستصلاح الأرض. قطيع كبير من الغنم والجمال، ونقود تعد بالآلاف كانت مدفونة في أرضية دارهم المتواضعة.

***

كانت أيام سعيدة عوضتني عن ليالي الوحدة في هذا المكان البعيد. وبدأت مع حكايات الرجال أتقوى على الغربة، وأنسى جراح الماضي التعيس. عذاب العشق بعجزه وجنونه وحرقته. آلام السجن، حيث الشعور الأليم بغياب العدل، والانتظار الدائم لتنفس نسيم الحرية.

السجن .. "ما أقساه إذا كنت مظلوما وما أتعسه إن كنت ظالما" .. كانت هذه العبارة محفورة على الجانب الأيسر من العنبر، وفي أحد حمامات دورة المياه القذرة. قرأتها ذات يوم، وتاه صوتي في كلماتها، ووخزت حروفها قلبي. وعيني فسحت الدموع. رآني عبد الحميد المناوي، فابتسم وربت على كتفي وقال:

- أنا الذي كتبتها.

- عبارة أثيرة.

- هل تأثرت بها؟.

- نعم.

- هي عادية، لكن حالتك النفسية أضفت عليها هذه المشاعر التي قادتك إلى البكاء.

- ربما..

سادت بيننا لحظة صمت طويلة ثم قال:

- أنت تسرعت يا صديقي، كان عليك أن تكون طويل النفس.

كان المناوي مصرا على رأيه هذا، فطالما سمعني وأنا أهذي كل ليلة باسم أبي وأمي، وأنادي عليهما. وفي الصباح يحكي لي عن هذياني فأقول له:

- ليس لهما أحد سواي.

غارت عبارات المناوي في أعماق الذاكرة، طمرتها ملايين الكلمات التي سمعتها منذ أن فارقته، لكنها تجددت بقوة ذات ليلة، حين كنت أحكي لعم عوض حكايتي، بعد أن وثقت به وصرنا صديقين. قال لي وهو ينفث دخان سجائره:

- كان عليك أن تصبر.

ـ هو رجل ظالم.

ـ وأنت رجل متهور.

ـ فاض بي الكيل.

ـ خسرت المعركة.

ـ حاولت أن أفعل شيئا.

ـ لكنك لم تتق الخداع.

ـ كنت بريئا غاضبا.

ـ البراءة جاءت بك إلى هنا، رغم أنك على حق، والحنكة جعلته يظفر ويكبر، رغم أنه على باطل.

ـ لا أحد يتعلم دون أن يدفع ثمنا ما.

ـ لكن الثمن باهظ.

ـ لا تبكتني يا عم ..

ـ صديقك يقول لك الصدق.

ـ لست في حاجة إلى نبش الماضي.

ـ ننبشه لنتعلم من تجاربه.

ـ لم يعد هذا ينفع الآن.

ـ لا تيأس.

ـ صار هو وزيرا.. لو كان هناك عدل في هذه الحياة لأصبح أمثالنا هم السادة، وأمثاله في السجون.

امتقع لون عم عوض في أسى، وزفر متألما وقال:

ـ لو كان هناك عدل لما فارقت أولادي، ولوجد أحمد من ينصحه. وحين قبل النصيحة كان يجب أن يجد من يسمعه.

ـ بل وجد من يطارده.

ـ لأنه تسرع مثلك.

ـ ربما السنين هي التي أكسبتك الحكمة، بعد أن دفعت أثمانا باهظة.

ضحك ساخرا وقال:

ـ حتى أنا لم تنفعني حكمة السنين.

ـ هل تسرعت أنت أيضا؟.

ـ بل تباطأت أكثر من اللازم.

ـ تباطأت!.

ـ كنت أعرف أن هناك جريمة ستحدث، وسأكون أول من يتهم بارتكابها. كان يجب أن أبلغ قسم الشرطة، لكنني تأخرت، فقبضوا علي.

ـ لماذا أنت بالذات؟.

ـ شاهدني الناس وأنا أهدد القتيل، وكانت بين عائلتينا أحقاد. أقسمت أمامهم أنني سأقتله، وسبقتني إليه يد أخرى.

ـ وذهبت إلى السجن.

ـ حكم القضاة علي بعشرين عاما.

ـ هل قضيتها؟.

ـ هربت في منتصفها، ومنذ ذلك الوقت وأنا من بلد إلى آخر، حتى انتهى بي المطاف إلى هنا.

ـ هل تعرف من ارتكب هذه الجريمة؟.

ـ نعم.

ـ لماذا لم تقل هذا للقضاة؟.

ـ كانت جريمة محبوكة. قتلوه بمسدس من عيار مسدسي، وأخذوا شعيرات من رأسي واحتفظوا بها ثم حشروها بين أظافر القتيل، بعد أن وضعوا قفازات في أيدهم.

ـ ومن أين حصلوا عليها؟.

ـ انتظرني أحدهم حتى فرغت ذات يوم من الحلاقة، ووضع خلسة بعض شعري المتناثر على الأرض في جيبه، قبل أن يكنسه الحلاق.

ـ لكنك تقول أن القتل تم بطلق ناري، فكيف يقتنع القضاة بموضوع شعر رأسك؟.

ـ الطب الشرعي أثبت أن الطلق الناري وقع من على مسافة نصف متر فقط من رأس القتيل، ورجح أن يكون هناك اشتباك وقع بين القتيل والقاتل، خاصة أنهم وجدوا كدمات في وجهه وجسده بفعل ضربات متتالية باليد.

ـ والنيابة اتخذت من هذا دليلا على إدانتك.

ـ قال وكيل النيابة إنني أردت أن أنله قبل أن أقتله، ففاجأني وهجم علي، ووقع بيننا اشتباك بالأيدي، فسحبت المسدس من جيبي وأطلقت النار عليه.

ـ وأنت .. أين كنت وقت وقوع الجريمة؟.

ـ لسوء حظي كنت في الحقل، حين قبضت الشرطة علي، وكان مسدسي معي. الأسوأ من ذلك لم أكن أرتدي عمامتي.

ـ يالها من مصادفة سيئة.

ـ وزاد الأمر سوءا شهادة الناس.

ـ الذين سمعوك تهدد القتيل؟.

ـ أكثر من شاهد استدعته المحكمة وشهدوا ضدي.

ـ ولم يكن أمام القضاة سواك.

ـ ولم يسمع أحد لتوسلاتي وراء القفص الحديدي، وصراخي .. أنا برئ .. برئ.

ـ حقا .. كانت جريمة محبوكة.

ـ لكنني ثأرت من القاتل.

ـ كيف؟.

ـ هربت من السجن، وخرجت لأقتله.

ـ هل أنت متأكد أنك قتلت الجاني الحقيقي؟.

ـ كما أنا متأكد من وجودك معي الآن.. لقد سمعت مخلوف أبو الدهب وهو يتفق مع أحد أقربائه على القتل. لكنني لم أكن أعرف أنه سيستغل فيما بعد شجاري مع القتيل ليلقي بالجريمة علي.

ـ ولم تحبك أنت قتله، كما حبك هو الجريمة الأولى.

ـ لم يكن يهمني شئ سوى الانتقام، وكل ما خططت له هو أن أختلي به وأنال منه بعيدا عن أعين الناس. لكن الحظ لم يحالفني تماما.

ـ هل رآك أحد؟.

ـ لا .. لكن أبو الدهب لم يمت في الحال، عرفت هذا قبل هروبي بساعات. لقد ظل على قيد الحياة عدة ساعات بعد إطلاقي النار عليه، وكان يردد اسمي، وسمعه أهل القرية ورجال الشرطة.

ويصمت عم عوض برهة ثم يقول معزيا نفسه:

ـ حتى لو مات في الحال فإنني أول من تدور حوله الشكوك.

ـ لأنك قلت أمام القضاة عن اتفاقه مع قريبه على القتل؟.

ـ نعم.

ـ سر براءتك كان لدى الحلاق.

ـ لم يكـن يعـرف شيئا عن الموضوع، ولا حتى أنا كنت أعرف وقت عرضي على المحاكمة.

ـ متى عرفت إذن؟.

ـ بعد خروجي من السجن بأسبوعين فقط.

ـ من أخبرك؟.

ـ أحد أفراد العائلة التي ينتمي إليها أبو الدهب.

ـ وما مصلحته في هذا؟.

ـ جار أبو الدهب على حقه في الميراث، وكان يريد أن ينتقم منه بيدي أنا.

ـ حكاية تشبه أفلام السينما.

ـ صنعها شخص ماكر. محامي من أقارب أبو الدهب.

ـ إنه شيطان رجيم.

ـ مـن يومهـا وأنا أكره المحامين. وحين عرفت أن الأستاذ أحمد كان ترك كلية الحقوق قلت له:

ـ هذا أفضل ما فعلته في حياتك.

ضحكت وقلت له:

ـ هناك محامون شرفاء، لكن سوء حظك أوقعك في أحد أشرارهم.

ساد بيننا صمت قصير قطعته أنا متسائلا:

ـ هل كان أحمد حقا طالبا بكلية الحقوق؟.

(ح)

نعم .. أنا كنت طالبا في كلية الحقوق بجامعة أسيوط. تركت الكلية في السنة الثالثة لأنني اعتقدت وقتها أن دراسة القانون الوضعي حرام، وأن البشر يفترون على تشريعات السماء حين يسنون لأنفسهم قواعد تضبط حياتهم. طالما صرخت في زملائي:

ـ قانون لا يقطع يد السارق ولا يجلد الزاني ويقتل القاتل لا يلزمني.

كان بعضهم يبتسم ويقول لي:

ـ أنت متعجل في الحكم على الأمور.

كنت متفوقا في دراستي، من أجل أبي الذي ينتظر على الباب الأخير من عمره المغموس في عرق الكفاح لأحقق يوما أمانيه، وأصبح يوما وكيل نيابة أو محاميا شهيرا. طالما شد على يدي وأنا ساهر ألتهم سطور الكتب:

ـ غدا ستصبح وكيل نيابة.

وحين كنت أبتسم وأقول له:

ـ النيابة ليست للفقراء أمثالنا.

كان يرد دائما:

ـ لا تيأس.. حتى لو لم تلتحق بالنيابة ستصبح محاميا شهيراً وستواصل دراستك العليا حتى الدكتوراه.

حفظت وصايا أبي، وكنت أسعى بكل طاقتي أن أدخل الفرحة على قلبه المكلوم بالعوز والحزن على أمي المريضة وأهلنا الجاحدين، الذين لم يفكروا يوما في تطبيب أي من جراحنا. في بداية السنة الثالثة من رحلتي الجامعية، اهتز

كـياني بشـؤون نسـيت معهـا أحـلام أبي، وبدأت أنسج أحلاما لا حدود لها عن دولـة الخلافـة الـتي تطـبق قوانـين السـماء، وملأنـي يقـين بـأنني قبضـت على الحقيقة بعد طول عناء.

كانـت الـبداية بمعـرض للكتـب بكلـية التجارة، تعرفت فيه على محمود السيد، الـذي عـرفني عـلى مسـائل لم أكـن أدري عنها شيئا. ناقشني طويلا عن الأحوال الفاسدة والأحلام المؤجلة، وكان ينهي حديثه كل مرة قائلا:

ـ لا بد من الجهاد. لن ينزل الله من السماء ليغير لنا الحال، علينا نحن أن نفعل شيئا، حتى لا نقول حين يتسرب العمر منا إننا تقاعسنا.

ولـا وجدنـي خامـة قابلـة للتشكيل أهداني كتاب "معالم في الطريق" لسيد قطب، وقال:

ـ اقرأه ثم نتناقش.

وتزلـزل كـياني الضـعيف بين السطور، وتقلبت في نفسي أمور كنت أظنـها راسـخة كالجبال. انزلقت إلى طريق جديد، فخاصمت أصدقاء الأمس، وقلت لهم دون مواربـة:

ـ أنتم جاهليون تعيشون في مجتمع لا يعرف حدود الله.

ولـا ضـيقت الخـناق علـيهم، انفـض أغلبهم عني، بعد أن غابت ابتسامتي وراء تجهم اليأس، وفوران الرغبة في الانقضاض على المجتمع، وإزاحة الحكم. لم يـبق سـوى صديق واحد. كان متدينا بطريقة أبي وأمي وأهل قريتنا الصغيرة. طالما قال لي:

ـ مهلا .. أنت رجل قانون. لا تحكم على ظاهر الأمور دون روية.

لكـنني لم ألبـث أن فارقـته غاضـبا ذات عصر، بعد أن احتد بيننا الجدل، وصرخت فيه:

ـ حتى القانون الذي تدرسه لا يلزمني.

وطلقت الكلية بالثلاثة، وانخرطت في صفوف "الجماعة الإسلامية"، فصرت مع الأيام مطاردا.

ـ هل شاركت في عمليات قتل؟.

ـ لم أنزلق إلى هذه الدرجة.

ـ ولا حتى مهاجمة مراكز شرطة أو مصالح حكومية؟.

ـ كنت على أبواب هذه المرحلة. حضرت اجتماعات كانت تخطط لمثل هذه العمليات، لكنني لم أساهم في التنفيذ.

ـ لم تقنعك هذه الطريقة؟.

ـ لا .. لكن الظروف حالت دون ذلك. داهمت الشرطة بيتنا قبل موعد تنفيذ إحدى العمليات بيوم واحد. كنت في الدار، وحين طرقوا الباب بقوة، انخلع قلبي، فوجدت نفسي أقفز من النافذة المفتوحة على زراعات الذرة، لتبدأ رحلة الهروب.

ـ وتنتهي هنا؟.

ـ لا .. هنا نهاية المطاف.

ـ والبداية؟.

ـ لجأت إلى أمير الجماعة في سوهاج. فقال لي: "دبرنا لك مكان تختبئ فيه إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا". وحط رحالي في مدينة العدوة بالمنيا، فكانت فترة ثرية في حياتي، ولدت فيها من جديد.

ـ كيف؟.

ـ كان لمحمود المنسترلي الذي استضافني في بيته صديق يدعى إبراهيم، عركته التجربة داخل السجن، فخرج يمارس نقدا ذاتيا شديد الصرامة. أخذ

عقلـي في دروب أكـثر رحابـة، حـين أعطـاني كتـبا للشيخ محمد الغزالي وزكي نجيـب محمـود وحسـن حـنفي وطـارق البشـري وأحمد كمال أبو المجد وجمال البنا، وقال لي:

ـ حتى ترى الصورة كاملة.

فسألته وأنا أطالع رفوف مكتبته العامرة بنفائس الكتب:

ـ أتكتمل الصورة بهؤلاء؟.

فابتسم وقال:

ـ هـناك غيرهم .. ودون هؤلاء من الصعب أن تفهم أشياء كثيرة، وهذه هي البداية. وسألته مرة أخرى:

ـ أية بداية تقصد؟.

فـرد وعيـناه ذاهبـتان إلى البعيد، حـتى تخيلـت أنـه يحملق في كل صور حياته المريرة:

ـ تلمس خطاك نحو الحقيقة، ولا تدع أحدا يستعبدك بأفكاره. لقد تعلمت بعـد عناء أنه لا يوجد أحد يحتكر الصواب، فالمفكر الواحد قد يغير أفكاره بعد مـرور السـنين، وسـيد قطـب الـذي أعجبـتك نداءاته اليائسة له كتب في مراحل سابقة كان لها اتجاه آخر، مثل "العدالة الاجتماعية في الإسلام"، وقبل ذلك كان شـاعرا يـتغزل في نهود النساء، ولولا تجربـة السجن القاسية، ربما كان له قول مختلف.

ـ لكنه عدل عن شعره الفاضح، والإسلام يجب ما قبله.

ـ والسجن أيضا قد يجب ما قبله، فالتعذيب الذي لاقاه في غياهب الزنازين جعله يكفر بالناس والسلطة والأفكار.

وأخذتني كلماته إلى مجاهل الخوف، وقلت له بصوت مفعم بالأسى:

ـ التعذيب الذي أظن أنه ينتظرني قد يجعلني أنسى كتبك وآراءك، وأصر على موقفي.

فامتلأ وجهه بابتسامة عريضة لا تخلو من عطف وسألني:

ـ هل ستسلم نفسك؟.

فقلت له بصوت حاد:

ـ لا.

صمت برهة وقال:

ـ لكن .. إلى متى سيستمر الهروب؟.

لم تكن هذه أياما عادية في حياتي، لأنها لم تمر رتيبة كما كنت أتوقع، بل حفلت بكل جديد، لدرجة أنني في نهايتها صرت إنسانا مختلفا عما كنته قبل أن أشهدها. ففيها أعدت ترتيب أفكاري المبعثرة، وغصت راحلا في آلامي حتى وصلت إلى قاعها البعيد، وأمسكت بأسباب عديدة لما حل بي. رأيت، رغم القلق والخوف الذي كان ينتابني كلما سمعت طرقة على باب غرفتي أو قدم تدب في الطريق المحاذي للبيت، في دنيا الناس ما عجبت له، وأيقنت أنني كنت أعمى، أو على الأقل كنت أعور، لا أري من الحقيقة سوى وجه واحد ضيق، لكنني ما حقرت نفسي أبدا ولا جلدتها، بل اقتنعت بأن ما مررت به ربما هو بداية طبيعية لشخص يسعى لبلورة موقف من الحياة.

ووجدت نفسي أحن إلى أيام كلية الحقوق، لكن هيهات، وأنا الهارب من ملاحقة الشرطة في جريمة لم أرتكبها، ولم أفعل شيئا سوى أنني في يوم من الأيام تصورت أن الحقيقة صارت في قبضة يدي، فعضضت عليها بالنواجذ مخلصا. وانسقت بكل كياني وراء ما اعتقدت أنه الخلاص، دون أن تكون لدي أدنى رغبة في أن أسمع غير ما وقر في ذهني.

وبعد أن أصبحت أحمل الإخلاص نفسه لعالم أكثر رحابة، كان الوقت قد فات، فلا أحد سيسمعني، وإن سمع فلن يصدق أنني إنسان جديد. وبينما أنا حائر، أتخبط في دهاليز عديدة، وبيدي النور الذي وهبه لي إبراهيم بين سطور كتبه التي استعرتها، جاءني المنسترلي وبيده الصحف الرسمية الثلاث، الأهرام والأخبار والجمهورية، وفتحها جميعا على صفحات الحوادث، وقال:

- أنظر؟.

- أين؟.

- وسط يسار الصفحة.

امتلأت هلعا وحط إصبعي على صورة في المكان الذي أشار إليه المنسترلي وقلت له:

- هذه صورتي.

فرد وابتسامة غامضة مرسومة على شفتيه:

- وصورة الإخوة الذين حكيت لي عنهم.

كانت صورتي تتوسط الصور الخمس المنشورة بالصحف، وأسفلها كتب أسمي: "أحمد عبد العزيز سليم"، وأسفلها مكتوب بين قوسين: "هارب". وفي ثنايا السطور كانت التهمة هي الاعتداء على رجال الشرطة، وحيازة أسلحة غير مرخصة ومفرقعات، والانتماء إلى تنظيم غير شرعي يخطط لقلب نظام الحكم. وكتب المحرر أن "المتهمين اعترفوا بكل ما نسب إليهم من جرائم، وأن البحث جار عن الهاربين".

حين انتهيت من القراءة قلت للمنسترلي:

- لا بد أن أرحل عن هنا.

صمت برهة وقال:

- هل هناك مكان أكثر أمنا؟.

- حتى الآن .. لا.

- إذن ابق معنا وربك ستار.

- لكنني مللت الحبس داخل الجدران، ولولا الكتب التي كنت أستعيرها من إبراهيم لمت غما.

فواساني قائلا:

- لم يمر عليك هنا سوى ستة أشهر، وغيرك في السجون منذ سنوات طويلة ولا يزالون صامدين.

- وقوع البلاء أهون من انتظاره.

رمقني مليا وقال:

- على كل الأحوال لن نستطيع التصرف قبل الرجوع إلى أمير الجماعة.

كانت تجتاحني رغبة عارمة أحيانا في أن أذهب إليهم وأقول لهم: هاأنا قد جئت إليكم في عقر داركم، إنسانا جديدا بتهم قديمة، وشبهات ربما لن تفارقه طيلة حياته. لكن الود الذي كنت ألاقيه من صاحبي، والكتب التي طرحت في ذهني تساؤلات لا بد من الإجابة عليها، وبعد المكان الذي كنت أختبئ فيه عن أعين الشرطة، جعلني أمكث مكاني، وأنا أتابع هذه الرغبة وهي ترحل رويدا .. رويدا عن عقلي وقلبي، وتذهب بعيدا تنتظر أن تطرق بابي من جديد.

وتوالت الأيام ثقيلة، وصاحبي يأتي إلي بالأخبار من عند أمير الجماعة، و"الأخوة" الملتفين حوله، ووجدتني ذات مساء أقول له:

- هناك أفكار لابد أن تتطور، ومواقف يجب أن تتغير..

تطلع في وجهي بصمت ممزوج بريبة طلت من عينيه:

ـ أية أفكار؟.

فقلت في ثقة متناهية:

ـ بعض ما تعتقده الجماعة.

امتلأ وجهه بمسحة غضب وقال:

ـ خدعتك كتب إبراهيم.

ـ بل جعلتني أعيد النظر في بعض الأمور.

ـ ليس كل ما يردده إبراهيم يروق لي.

ـ لكنني أرى أن فيه كثيرا من الصواب.

زادت مساحة الغضب في ملامحه المضطربة وصرخ:

ـ لكنك تبتعد بذلك عن أفكار الجماعة ومعتقداتها.

أمسكت كتفه، وقبضت عليه، وعيناي تطلان في أقصى نقطة كنت أراها في ذلك الحين، وقلت له:

ـ إلغاء العقل ليس في مصلحة أحد.

فربت على كتفي وقال:

ـ يبدو أن الدنيا ستفتنك أنت الآخر .. كان إبراهيم قبل سنوات شخصا آخر، لكن الكتب الملفقة غيرته.

ـ هو صاحبك، لا تقدح فيه.

ـ لا أزال أحترم تاريخه، لأنه تحمل الكثير في سبيل الدعوة.

ـ ولا يزال يتحمل..

ـ لا أعتقد، فقد ابتعد كثيرا.

ـ آفة البعض أنهم يعتقدون أن ما يفعلونه هو الصواب، وما يفعله الآخرون هو الخطأ عينه.

ـ هناك أشياء لا يختلف عليها اثنان.

ـ وهناك من يريدون أن يوسعوا هذه الأشياء لتطوق الحياة بأسرها، وهذه هي المشكلة.

***

لم نتفق على أفكار عديدة، لكن صاحبي لم يضق بي، وكان يقول لي كلما أوغلنا في الجدل، واحتدم بيننا الخلاف:

ـ "ربنا يهديك".

لكنني كنت أقول في نفسي، مطمئنا إلى ما أنا ماض إليه:

ـ لا يزال يعتقد أنه قابض على الهدى.

وتوطدت علاقتي بإبراهيم يوما إثر يوم، وتمنيت لو بقيت طيلة عمري إلى جواره. لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. فذات عصر لا أنساه، جاءني إبراهيم وفي يده صحف. كانت صورتي مرة أخرى، وبصفحة الحوادث أيضا. اسمي الثلاثي بعينه، لكن كلمة "هارب" التي كانت موضوعة بين قوسين كبيرين أسفل الصورة، غابت وحل مكانها رقم "٧" بجواره كلمة "سنوات". هكذا جاء الحكم الغيابي، وكان علي أن أفتح بابا جديدا للهروب والتشرد.

في اليوم التالي قلت للمنسترلي بصوت مليء بالحيرة والأسى:

ـ لا بد أن أرحل عن هنا.

صمت برهة، وقال:

ـ لا زلت أؤكد أنك في مكان آمن.

وارتسمت على ملامحه كآبة، ولاذ بصمت طويل، وعيناه تائهتان بسقف الغرفة، وشفتاه مزمومتان بصرامة مقاتل مقبل على معمعة حامية الوطيس. ربما دارت في رأسه ذكريات الوحدة القاتلة، بخوفها وضجرها وانتظارها

الطويل للحظات الأنس. طالما قال لي، وهو يبتسم في امتنان:

- وجودك معي أنقذني من السقوط في الاكتئاب.

كنت بالنسبة إليه الأنيس الذي ظل يبحث عنه ردحا طويلا من أيام مفعمة بالأسى. فقد مات أبوه وأمه قبل سنوات في حادث مشؤوم. بعده سافرت أخته الوحيدة مع زوجها إلى الكويت، وتركت له بيتا على الطرف الشمالي الشرقي من مدينة العدوة، يشرف على الزراعات، ولا يأتيه إلا من يقصده.

فلتت من عيني دموع، لم أكن أريد أن أريقها في هذه اللحظة حتى لا أزيد من حزن صاحبي، لكنه رمقها، فقال:

- لك مطلق الحرية في أن تبقى أو تمضي.

ومضيت بعد أن تفهم ظروفي. قلت له وأنا أربت على كتفه:

- أنا واثق فيك، لكنني لست واثقا فيهم.

- من؟

- ضباط مباحث أمن الدولة.

- تقصد ..

- أقصد أنك أنت أيضا قد تقع في أيديهم في أي لحظة، وسيستبيحون منزلك، وعندها لن أسامح نفسي.

- لكنني لم أفعل شيئا يوجب القبض علي.

- وهل كل من قبض عليهم فعلوا أشياء محرمة؟!.

- معك حق.

- إذن سأرحل.

ورحلت ذات مساء. طويت مدنا وقرى، حاملا أوجاعي وجوعي ورعبي، حتى انتهى بي الحال إلى الكهوف والرمال والذئاب الجائعة، بعد تجربة أشد

قسوة في الفيوم.

***

يقول علي بعد زفرات ألم متتابعة:

ـ لو لم تكن هنا صحبة ربما سقطت في الجنون.

فتمتلئ ملامح أحمد بالأسى ويقول:

ـ لكن شبابنا سيضيع بين ذرات الرمال السافية.

فيبتسم في سكينة ويقول مطمئنا:

ـ وهل هناك كنا سننجو من الضياع؟.

ـ على الأقل كنا نجد الأماكن التي نحبها، وبعض الناس الذين يحبوننا.

ـ وبعضهم جعلونا نفر إلى هذه الصحراء الموحشة.

ـ تقصد رئيس مجلس الإدارة الذي صار وزيرا؟.

ـ هو وغيره.

ـ لعن الله أمثاله في كل كتاب.

ـ وأمثالنا نحن أيضا.

ـ وماذا فعلنا حتى تحل علينا اللعنة.. ؟.

ـ تركنا هؤلاء يعيثون فسادا في الأرض.

ـ قلت لي إنك لم تبخل بجهد في محاربته.

ـ كان يجب أن أحاذر وأواصل الطريق.

ـ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

ـ بوسعنا الكثير .. لكننا لم نكتشف أنفسنا بعد.

ـ لعلنا نكتشفها هنا وسط الرمال.

فيهز رأسه مشككا ويقول:

ـ حين نبتعد عن المشكلات لا نراها بالمرة.

فأربت على كتفه وأقول:

ـ وأحيانا قد نراها جيدا..

(ط)

– حلّت البهجة، وأقبلت الدنيا، فقلت أذهب بعيدا وأجلس هناك تحت الصخرة، وأترك نفسي لرزاز المطر ، يتخلل شعري المجعد، وينساب على وجهي، ويعيدني إلى أيام مضت. فمنذ أن كنت غضا وأنا أحب المطر. دائما يغسل أحزاني. يرسل زخاته على أوجاعي الملتهبة فتبترد. ابترد الصخر الراقد تحت قدمي، وابتلت الرمال وانطوت على حمم الظهيرة. زركشها المطر فامتلأت بالبثور، وانثقبت ذاكرتي فتدفقت الأحداث، واهتز لها عقلي وجسدي بعنف. عادت إلي تلك الرعشة التي تملكتني ذات صباح وأنا جالس أمام المحقق . زم شفتيه، وعقد حاجبيه ورمقني مليا، حتى تخيلت أنه قد بات مطلعا على المستور في جمجمتي. قال لي، بعد أن أملى على كاتبه ديباجة التحقيق:

ـ أنت متهم بالشروع في قتل رئيس مجلس إدارة الشركة العامة للبناء والتعمير.

ـ هذا افتراء .

ـ هناك أكثر من شخص أدلوا بشهاداتهم في هذه الواقعة، والجميع أدانوك.

ـ هؤلاء أذناب.

ـ في هذا المقام لا يسب أحد .

ـ أنا معذور، فقد قاسيت منهم الكثير.

ـ إذن .. ماذا حدث بالضبط؟.

- أقر بأنني كنت غاضبا، بقدر حنقي على الإضرار بالمصلحة العامة، وحقدي على أولئك الذين يظلمونني.

- أي ظلم؟..

- نقلي إلى الأرشيف وأنا الموظف الذي طالما شهد له رؤساؤه المباشرون بالكفاءة والتفاني في العمل. حرماني من العلاوة الدورية. الخصم المستمر من راتبي دون سبب حقيقي لذلك، وأحيانا دون تحقيق داخل المؤسسة. الضغط على بعض رؤسائي المباشرين ليمنحوني تقدير "ضعيف" في تقاريري ربع السنوية توطئة لفصلي من العمل.

- ولماذا كل هذا؟.

- لأنني كنت أرفض فساد رئيس مجلس الإدارة.

- كان من الممكن أن تلجأ إلى جهات الرقابة الإدارية.

- شرعت بالفعل في ذلك، لكنه باغتني بتشكيل لجنة ثلاثية قررت، بإيعاز منه، فصلي من العمل، وأصبحت مشردا، وفقدت جزءا مهما من شرعية تحركاتي المضادة له. وبات علي أن أنغمس في همي الخاص، وأنا المشرد بلا عمل ولا دخل يعينني على مواجهة أعباء الحياة.

- هل لجأت إلى القضاء العمالي؟.

- طرقت هذه الباب، ووكلت محاميا، لكن قبل أن يشرع في إجراءات القضية، فوجئت بالتهمة التي لفقت لي، ودفعتني إلى أن أمثل أمام حضرتك الآن.

- كان من الأفضل أن تستمر في طريق القانون ولا تلجأ إلى العنف في حل مشكلتك.

- لم ألجأ إلى العنف أبدا .. هذه محض افتراء من قبل خصومي.

ـ هم قالوا روايتهم، وجاء دورك لنسمع روايتك .. ماذا عندك؟.

ـ بعد فصلي بشهرين، ضاقت بي الدنيا. لم أجد عملا، ولم يكن معي حتى ثمن رغيف الخبز. قلت أذهب إلى المؤسسة وأقابل رئيسها، وأطلب منه أن يعيدني إلى العمل، بعد أن أتعهد له بأنني سأغير مسلكي، وأنهي خصومتي معه. الحقيقة لم يكن هذا انكسارا أو تراجعا، بل كانت حيلة، فقد كنت مقتنعا بأن ما أفعله هو الصواب بعينه. وهل مقاومة الفساد ونهب المال العام وظلم الناس تكون غير ذلك؟. لكن الظروف كانت تقتضي أن ألجأ إلى هذه الحيلة لأعود إلى عملي وبعدها سأستمر في مواجهته، لكن بأسلوب جديد مستفيدا من أخطائي السابقة. وسيطرت علي حينها فكرة أن رئيسي هذا لن يبقى في منصبه إلى الأبد، أما أنا فقد أظل عاطلا إلى نهاية عمري.

ـ وذهبت إلى مقر الشركة لتنفذ ما انتويت عليه.

ـ كان الوقت ضحى، وكنت مجهدا، لكن الأمل يحدوني بأنني سأتمكن من إقناع رئيس مجلس الإدارة بإعادتي إلى عملي. فقد كان ينتظر اليوم الذي أخر فيه راكعا أمامه طالبا الصفح والغفران، وأكون عبرة لكل من تسول له نفسه أن يتحدى سلطانه. فإبعادي تماما عن المؤسسة سينسي الناس حكايتي، أما بقائي أمامهم، يرونني كل يوم، فسيجعلهم يتذكرون دائما أن كل من يقول لا مآله الذل والخسران.

ـ وقابلته؟.

ـ دخلت المؤسسة، فتصادف أن كان هو خارجا منها. وتقابلنا في البهو العريض. معه حاشيته ومعي الرجاء. وما إن وقعت عيناه على هيئتي، ذقني غير الحليقة ولباسي غير المهندم، حتى ابتسم ساخرا، فاستيقظ داخلي غيظ، طالما كنت أروضه وأنا ذاهب إلى المؤسسة في ذلك اليوم. تماسكت وقلت له:

ـ أريد أن تمنحني دقيقة واحدة من وقت سعادتك الثمين.

فتجاهلني ماضيا في طريقه، فعدت إلى توسلي:

ـ دقيقة واحدة فقط.

رد في صوت مملوء بالعجرفة والتشفي:

ـ لدي موعد مهم. تعالى في وقت آخر

.ـ أرجوك يا سعادة الرئيس..

ـ قلت لك مشغول .. ألا تفهم.

تماسكت للمرة الثانية، متلهيا عن عيون أفراد حاشيته التي امتلأت بالتشفي وعيون بعض حرس المؤسسة المترقبة، وقلت له:

ـ أفهم شيئا واحدا أن دقيقة من وقتكم لن تؤخركم عن هذا الموعد.

توقف ونظر إلى الخلف وطالع وجهي الذي كانت مسحة من التحفز قد بدأت تكسوه وقال:

ـ ألا تزال عنيدا ومتهورا.

هذه المرة لم أتماسك، بعد أن اجتاحني إحساس جارف بالإهانة. وتمنيت لو لم أعطه هذه الفرصة أبدا، وقفزت داخلي رغبة في أن أنتصر لكرامتي مرة ثانية فقلت له بتحد:

ـ العنيد المتهور أفضل من اللص الجبان.

وما إن أنهيت جملتي هذه حتى كانت أصابع يده قد انطبعت على خدي. صفعة قوية كادت أن تسقط أسناني. أخرى كانت في الطريق إلى خدي الآخر، لكنني وثبت عليه. أمسكته من رابطة عنقه، وجذبته حتى كاد أن يسقط على الأرض. تكالبت علي جسدي عشرات الأيدي. خلصته مني وأوسعتني ضربا. وشاركت الأرجل في ركلي والألسنة في شتمي. ضربة أخيرة كانت على مؤخرة

رأسي، أفقدتني الوعي. حين أفقت وجدت رجال الشرطة يتحلقون حولي.

زم المحقق شفتيه مرة أخرى، ثم قاطعني قائلا:

- وجدوا في يدك مطواة قرن غزال.

- هذه لا أعرف عنها شيئا.

- كل الشهود أكدوا أنك أخرجتها من جيبك، فور أن رأيت رئيس مجلس الإدارة، وهممت أن تغرسها في صدره لولا أن هجم عليك أحد رجال أمن المؤسسة وضربك على مؤخرة رأسك بإحدى زهريات الورد المصفوفة في مدخل المؤسسة.

- قلت إن هؤلاء الشهود كاذبون.. هم ببساطة طوع أمر رئيس مجلس الإدارة، إنهم حاشيته المستفيدة من وجوده.

- ورجال أمن المؤسسة؟.

- هؤلاء مغلوبون على أمرهم، وما يدريني لعله اشترى ذممهم.. مال المؤسسة ملك يمينه يوزعه كيف يشاء.

- هل لديك أنت شهود؟.

- للأسف لا.. كل من رأي الواقعة جاء إلى هنا وشهد ضدي.

- إذن أنت مدان.

- هناك من يشهدون على فساد مراد غالب، ويؤكدون أنه أقدم أكثر من مرة على تلفيق التهم لمن لم يرق لهم مسلكه، وسعوا إلى مقاومته.

- هذه قضية أخرى.

- لكن لها علاقة بقضيتي.

- أهم من ذلك أن يكون لديك شهود على ما تقول..

تطلعت في وجهه لأعرف ماذا يقصد، لكنه لم يترك للأمل طريقا إلى نفسي

حين استدرك قائلا:

- شهود في الواقعة المحددة التي نحن بصددها الآن، وهي الشروع في قتل مراد غالب.

- لم أفعل ذلك .. صدقني.

- القانون يحتاج إلى أدلة مادية.

- لكن فراسة رجل القانون تحسم أمورا كثيرا.

- هل ستعلمني شغلي؟!.

- العفو .. لكن في مثل هذه الواقعة من الطبيعي أن يجد رئيس مجلس الإدارة من يقفون في صفه لأنه الطرف القوي.

- أتشكك في نزاهة النيابة؟.

- أنا أتحدث عن شهود الزور.

- من الطبيعي أن تقول ذلك.

- أنا أطعن في هذه الشهادات.

- من حق محاميك أن يفعل ذلك.

- حتى الآن ليس لدي محامي.

- لماذا؟.

- ببساطة شديدة .. لا أملك ما أعطيه له.

في اليوم التالي أبلغوني أن محاميا يريد أن يراني. أوكله عم عطية. وسعدت لأن هناك من يهتم بحالي. قابلته وشرحت له ما حدث. فلم يعلق بشيء سوى أن قال:

- سأبذل كل جهد مستطاع في سبيلك.

بعدها بيومين زارني المحامي مرة أخرى ومعه عم عطية. كان متعبا.

وجهه امتلأ بالتجاعيد، وعيناه غارتا خلف هموم وشجن. قلت له في انكسار:

- هزمنا الفاسد.

فابتسم محاولا أن يخفي مرارة بدت واضحة على ملامحه، وقال:

- لكل ظالم نهاية تعيسة.

تفرست في وجهه الشاحب، وتذكرت، دفعة واحدة، كفاحه المرير وقلت:

- أحيانا أشك في هذا.

وهنا تدخل المحامي قائلا:

- لا تدع اليأس يدفعك إلى الخواء التام.

- في بلادنا يكبر الظالمون .. يسرقون خيراتها، ويدوسون كل من يقف أمامهم. والمظلومون لا يملكون سوى الشكوى لله والأيام ولبعضهم البعض .. لكن دون جدوى.

- لن ينزل الله من عليائه ليخلصنا من الظالمين والفاسدين .. هذه مهمتنا نحن. الله قال أننا خلفاؤه في الأرض، ووهبنا العقل والسواعد والمشاعر الفياضة، وعلينا أن نستخدم هذه الطاقات العظيمة في إقامة العدل.

- لكن الظالمين أصبحوا أقوى من كل هذه الطاقات.

- لأننا صمتنا أطول مما يلزم.

- أنا وعم عطية لم نصمت، فكانت هذه هي النتيجة.

- لأنكما اثنان .. لو تكلم عشرات الرافضين ما كان لغالب أن يغلبكما.

(ي)

صباح الخير يا سلمى ..

هكذا قلتها للرمل والصخور. للسماء الطليقة فوقي. لنجمة وحيدة هلت مع انسياب مساء بارد، وخيط قمر يبزغ هناك في البعيد ويجاهد لتكتمل لحظة ميلاده، وندف بيضاء من سحب راحلة إلى حيث تكون المدن، وتموج الحياة بدبيب الآدميين ودأبهم.

ورنت في أذني موسيقى صوتها وهي ترد صباحي بصباح أجمل منه، وسرى في كفي دفء كان يتسرب من يدها لحظة المصافحة، فطفرت عيناي بدموع الحنين، وتفجرت ينابيع الذكريات.

جلست وحيدا، بعد أن تركني أحمد وعم عوض، أحفر في أيام من الفرح والوجع الجميل، وأنهل ما وسعني من ساعات اللقاء ولحظات الفراق الأخيرة. كانت منكسرة وحزينة. في عينيها كلمات مخنوقة، وعلى شفتيها رعشة الخوف من رد فعلي حين تقول لي:

ـ ليس بيدي ..

قلت لها:

ـ تكاثر علي الذئاب وغلبتني أيامي العصيبة.

فردت دون أن يطرف لها رمش:

ـ أنت سجين.

فزفرت في أسى، وتملكني ثبات ورضى المقبل على مهمة جليلة، وقلت:

ـ أنا برئ. ويكفيك أن أقول لك هذا.

لكنها لم تكن متسامحة مع رجل بلا مستقبل. وحين شرعت في انسحابها الأخير من أمام قفص السجن، صرخت أعماقي في صمت مكتوم:

ـ يحيا النسيان.

لكنني لم أنس، وهاأنا أناديك يا سلمى، والحجر شاهد علي، وسنابل الشعير تسمعني، وطير يحط هناك فوق ربوة بعيدة يراقبني. أنادي فيك أحلامي التي راحت، وشبابي التعيس.

كان يوم أحد حين نادى حارس السجن اسمي في قائمة سعداء الحظ، الذين تذكرهم أهلهم وجاءوا لزيارتهم. وخرجت فرحا من العنبر، فقد كنت واثقا أنها هي. التقى وجهي بوجهها، فتدلت عيونها في أسى ممتزج بالهروب، وقالت:

ـ كيف حالك؟.

رددت وأنا أغالب دمعة ترقرقت بين أجفاني:

ـ تعيس جدا وأنا بعيد عنك.

ـ هذه أقدار.

ـ لكنني لم أعتقد أن يوما سيمر دون أن أراك أو أسمع صوتك.

صمتت برهة، وارتعشت شفتاها، وعلا وجيب صدرها، ثم قالت العبارة التي أماتت الأماني وأحيت وجعي إلى الآن:

ـ جئت لأودعك.

داهمتني حسرة وتعجب وآلاف الأسئلة، ولم أستطع أن أنطق سوى بكلمة واحدة، جاءت حروفها مكسورة باهتة وكأنها قادمة من جوف زمن سحيق:

ـ الأخير.

ـ نعـم .. أهلـي أرغمونـي عـلى فراقك، ورجوتهم كثيرا حتى يسمحوا لي بأن أجيء إليك اليوم.

ـ ليتك لم تأت، وتركتني أعيش على أمل.

لم ترد، وواصلت هروبها:

ـ لديك عندي أمانة.

فهمت ما تقصد، فقلت:

ـ دبلة الخطوبة.

ـ نعم.

ـ أبقيها معك.

ـ لماذا؟.

ـ لتكن ذكرى حب لم يكتمل، وآلام ستتواصل.

ـ معي خطاباتك وفي أذني كلامك عن الحب والعش والأماني..

ـ كل هذا لم يشفع لي عندك.

ـ أبي قال أن سجنك سيطول، وحين تخرج ستصبح عاطلا.

ـ وما رأيك أنت؟.

ـ أبـي رجـل قاسي، وأمي مولعة بالمال. قبلوك في البداية على مضض حين لمسوا تمسـكي بـك.. أما الآن فالأمور قد تغيرت.. لم أعد قادرة على الدفاع عنك إلى النهاية.

ـ صرت في نظرهم مجرما.

ـ وصرت لدي الماضي الجميل.

ـ كان يجب أن يكون حاضرا ومستقبلا.

ـ قدر.

ـ بل خيانة.

ـ تمسكت بك حتى اللحظة الأخيرة.

ـ الوفاء الحقيقي لا تنال منه الظروف.

صمتت برهة وقالت:

ـ كثيرا ما نصحتك بالابتعاد عن المواجهة.

ـ وكثيرا ما حاولت أن أجذبك إليها.

ـ لأدخل السجن.

ـ بل لتشعرين بأنك موجودة.

ـ كنا مختلفين.

ـ لكننا كنا متحابين.

ـ مع الاختلاف لا يدوم الحب.

ـ قد يكون العكس، حين يكمل كل منا الآخر.

ـ لكنك كنت تريد أن تسير بمفردك وفي طريق واحدة.

ـ وكذلك أنت.. أكانت الأمور بيننا إذن ليست على ما يرام؟.

ـ الآن صارت كذلك.

ـ هذا أول اختبار.

ـ بل تلك هي النهاية.

ورحت يا سلمى، وتركتيني نهبا للكآبة والحيرة. ألف سؤال في رأسي، وبعض إجابات لا تشفي الغليل. موزعة بين الأمس واليوم والغد. مبعثرة في دروب لا تنتهي من الشقاء والألم. كنت واثقا من الحب. على الأقل من حبي أنا لك. وكنت قاسية علي. لم أستمهلك، وأنت تنسحبين ببطء من أمامي، والشبكة

الحديدية تحول دون أن أرى كل تفاصيلك التي عشقتها، وقبضت على إبائي، وقلت في نفسي بحزم، وأنا منقسم بين اليأس والرجاء:

ـ باعتك فبعها.

لكني كلما تذكرت أن فترة سجني ستطول لسنوات، كنت أجد لك عذرا، فيتململ الإباء، وتتوقف محاولات التلهي، ويعود قلبي ينبض بالدرجة نفسها التي كان عليها حين تهلين في الصباح الباكر، وأنا منزوي في ركن الحجرة، خلف مكتبي الصدئ. في يدي كتاب، وعلى لساني كلمة، وفي عيني لهفة ودموع حبيسة. أتعبني الوجد يا سلمى فقرأه في انكسار عينيي كل الزملاء. ولم يكن أمامي من صديق سوى عم عطية. شرحت له حالي، فقال لي بعزم وكأنه يتلو بيانا في اللجنة النقابية:

ـ لا بد أن تواجه.

ترددت كثيرا، لكن جاء صباح ليس ككل الصباحات التي مرت بنا. دبر القدر كل شيء. غاب بعض الزملاء، وخرج آخرون في مأمورية، وسنحت الفرصة حين صرنا أنا وأنت فقط في غرفة فسيحة تحمل في جوفها عشرة مكاتب. بحت لك بالسر الذي عذبني كتمانه، فوجدت في خفرك وابتسامتك التي حاولتي ترويضها ما أسعدني. وبعد أيام ذهبت إلى بيتكم، لتبدأ مراحل المساومات والرجاء والأخذ والرد، التي انتهت بخطبتنا. وجادت لنا الأيام العصيبة بساعات هنيئة، حين كنا نخرج من المؤسسة، تاركين وراءنا هموم كفاحي المرير ضد سلطان مراد غالب الغاشم، إلى شوارع ظليلة، تحتضن رقصات الفرح في أرجلنا الجذلانة، ووميض الأمل في أعيننا التي تعكس ضوء شمس العصر الدفيئة.

لكن مراد غالب، استكثر علي هناء اللقاء كل صباح، حين تهلين على المكتب، تسبقك ابتسامة عريضة. فذات صباح لن أنساه فوجئت بقرار معلق على لوحة الإعلانات بالمؤسسة يفيد بنقلك إلى قسم آخر. لملمت أوراقك يا سلمى، وصافحت كل الزملاء، ونظرت في عيني فلم تحتملي الأسى الرابض في قعرهما العميق، الطافح على المقلتين دمعتين مخنوقتين. ذهبت وصارت الغرفة بعدك زنزانة.

هاأنا يا سلمى قد وسعت زنزانتي ، حتى صارت صحراء مصر الغربية بأكملها. وجدت فيها رفاقا كرفاق الأمس. مطاردون مثلي. لكن أحدا منهم لم يترك قطعة من فؤاده في الوادي الخصيب كما تركت أنا. هل تزوجت؟.. أم تنتظرين على عتبات المساء عودة الفارس المهزوم؟ .. هل نسيتيني؟ أم أنني نجحت، رغم انسحابك الأخير، في ألا أترك أرضا إلا وغرست لك فيها ذكرى؟ .. هل أنجبت الطفلين اللذين اتفقنا يوما على اسميهما؟..

أقول لك:

- أريد بنتين جميلتين مثلك.

فتقولين:

- بل ولدين جريئين مثلك.

ثم نصل إلى حل وسط ونقول معا:

- بنت جميلة وولد جرئ.

مات هنا في صلبي البنات والأولاد. ماتوا يا سلمى. مائي تجمد. لم يجد أرضا ليروي ظمأها، فتصلب في شراييني. تبخر في ليالي الانتظار، وأيام الخوف من المجهول ... المجهول. تلك الكلمة التي كانت تفجعنا أحيانا، ونحن

نتسكع على كورنيش النيل. جيوبنا خاوية، وقلبانا مملوءان بالأمل. كنت أقول لك:

ـ إذا حسبناها بالعقل فهي صعبة.

تؤمنين على قولي في ثقة:

ـ الحب لا يعرف الحساب.

ثم نشدو معا مقطوعات أخيرة من أغاني نحبها. لماذا كانت الأخيرة يا سلمى؟. هل كنا نشعر بأن النهاية اقتربت؟، أم أن مآل ما بيننا الفشل. لأن ظروف زماننا جعلت الحب فقط يعجز عن مواجهة تكاليف الحياة الباهظة العصيبة؟.

كنا وقتها أقوى من أي ظروف.لم يكن في الخيال صحراء وفراق وزنزانة وتشرد. لم يدر بخلدي أن كفاحي ضد فساد مراد غالب سيفضي بي إلى غياهب السجن. ثلاث سنوات كاملة نطق بها القاضي، ولملم أوراقه، دون أن يعرف أن سلمى ستضيع مني، وأن أمي وأبي سيبكيان كثيرا، وينتظران أكثر، وأن غالب سيصبح وزيرا، ليزداد بطشه وفساده، ويدهس تحت قدميه المثقلتين بالتغطرس آلاف الأبرياء مثلي.

ما إن نطق بالحكم، حتى أسرع عم عطية إلى القفص، ليواسيني قائلا:

ـ قلبي معك.

ـ ألم أقل لك إننا لا نزال ضعفاء.

لكنه لم يتخل عن ثباته، وكأنه يحفز جنديا ذاهبا إلى حرب ضروس:

ـ لا تنكسر.

كنت واقفة بجواره يا سلمى. اقتربت مني وشددت علي يدي، وقلتي:

ـ سأنتظرك حتى نهاية العمر.

لكـن هذا العمر لم يستمر سوى سنة واحدة. جئت، وقلت الوداع، وسقت ذرائع لم تدخل رأسي، فحلت الكآبة، وغاب الأمل، وصار السجن سجونا.

كنـت تعـرفين كـل شـيء عـني. أخرجـت أحشـاء نفسـي وعقلي ووضعتـها أمامك، وقلت لك في لحظة صدق:

- أنا رجل محمل بهموم كثيرة، فتمهلي في قرار الارتباط بي.

لكنك لم تتمهلي أبدا، وقلت في ثقة متناهية:

- وأنا مسكونة بك.

فغمـرتني وقـتها سـعادة لا حـدود لها، وصرخ نداء داخلي: "هي ..هي". لكن الأيام دارت، وجاء يوم الوداع ولم تكوني أبدا " أنت .. أنت". ماذا جرى يا سـلمى؟ لم تنـتظري لأسـألك هـذا السـؤال، بـل لم يخطر ببالي بعد أن ألجمتني الفجيعة، وحجزني الكبرياء.

ويـوم بـيوم رحـت أتقـوى علـي غـيابك، وراحت التفاصيل الحميمة بيننا تغـور في قـيعان النسـيان، ولم يـبق مـنها إلا خـيوط ذكـرى مـتقطعة، لا تحضر كاملة أبدا.

لكن كل شيء عاد بقوة يا سلمى، وكأن سنوات لم تمر، وكأنني تركتك منذ دقـائق. في أنفـي عطرك، في يدي دفئك، وفي أذني ضحكاتك الصافية. فلم يعد لي بـين جدران سجني الجديد سوى اجترار الذكريات. في المرة الأولى كانت تهمتي الشروع في القتل، وفي المرة الثانية الانضمام إلى تنظيم غير شرعي يهدف إلى قلب نظـام الحكـم. هكـذا مـرة واحدة تقدمت من مقاوم لموظف كبير إلى مناهض لنظام بأكمله.

***

انفتح المجهول فجأة ذات فجر. قمت مفزوعا على طرقات مدوية انخلع لها قلبي والباب. ثواني وقبضت أصابعي المرتعشة على المقبض. أدرته فامتلأت العينان بدهشة ممزوجة بالخوف. كانا ضابطين، وراءهما عدد من الجنود. صرخ أحدهما في وجهي:

ـ أنت علي صابر حسنين.

فقلت بتعثر:

ـ نعم.

فقال وهو يجذبني من كتفي:

ـ تفضل معنا.

ـ إلى أين؟.

ـ هناك ستعرف.

وجدت نفسي بين أربعة جدران مع رفاق الحزب والمقهى والرحلة. حبيس لا أجد حريتي إلا في ابتسامة أمي الطيبة، وسعال أبي الذي يؤنس وحشتي في ليالي الشتاء الباردة. وهاأنا بأمر من نظام يمقت من يقول له "لا" صرت شيوعيا. ولم يعد أمامي سوى السخرية من هؤلاء الذين يصنعون تهما ثم يفصلونها على من يرغبون.

لم أكن شيوعيا في يوم من الأيام. كنت أدخل في علاقات جدل لا تخلو من إعجاب ببعض الأطروحات الماركسية الخاصة بالاقتصاد الدولي والتفاوت الطبقي، لكنني أرفض الكثير منها، بقدر توقي للحرية، وانبهاري بالديمقراطية الغربية كأسلوب للحكم، ووجود علاقة حميمة مع تعليمات السماء العظيمة، لم تفارقني يوما، كنت أبنيها على إيمان مطلق بأن الله عادل ورحيم وجليل.

***

في رحلة البحث عن عمل انتهى بي الحال إلى الحزب. صديق قديم ظهر في حياتي مرة ثانية فقادني إلى هناك. كنت أعبر ميدان العباسية، ولا يهمني سوى تفادي السيارات المنزلقة إلى مصر الجديدة، حين وضع يده على كتفي. التفت سريعا فوجدته أمامي. صرخت من أعماقي:

ـ معقول .. سيد الحامولي. بعد كل هذه السنوات.

تعانقنا وسط الميدان، والسائقون أطلقوا أبواق سياراتهم فأيقظتنا من متاهات الذكرى. أخذتنا أقدامنا المنهكة إلى المقهى الذي طالما جلسنا عليه حين كانت الدنيا أجمل، والعود أكثر صلابة في مواجهة الظروف. وكعادته كان الحامولي متفائلا، ومطمئنا إلى أن الأيام تجري في صالحه، والمقادير ترتب له ورفاقه وضعا أفضل. تحدث كثيرا عما يفعله داخل التنظيم الشبابي للحزب. تابعته بذهن شارد، وأعصاب باردة، وخيال يحلق بعيدا .. بعيدا. لاحظ شرودي فقال:

ـ تغيرت كثيرا.

تنهدت في ألم وقلت:

ـ لو عصفت بك الأيام مثلما فعلت معي لتغيرت أنت أيضا.

طوح يده في الهواء وضحك:

ـ قديما كنت تؤكد لنا أنك راسخ كالجبال.

اكتسى وجهي بصفاء الواثقين من أنفسهم وقلت له:

ـ لم نكن متفقين في كل شيء، وليس من العيب أن ننقد أنفسنا.

صمت برهة وقال:

ـ لاحقني الأمن، واحتجزني أكثر من مرة، لكن هذا لم يجعلني أتراجع قط.

ـ المسألة ليست متعلقة بالأمن لكنها مراجعة الذات بعيدا عن العناد الذي يورث الخطأ.

ـ لكنهم عذبوني في السجن.

ـ لكنك لا تحمل فوق ظهرك جريمة مثلي.

ـ جريمة؟!.

ـ نعم .. جريمة لم أرتكبها، لكنها ثابتة في صفحة أيامي.

تقطب جبينه، وغارت عيناه في أسى:

ـ يبدو أنك مررت بتجربة أليمة.

ـ تم اتهامي بالشروع في قتل رئيس مجلس إدارة الشركة التي كنت أعمل بها، وانتهى بي المطاف إلى السجن، ومنه إلي الشارع، لأنضم إلى طابور العاطلين.

سردت له كل حكايتي وهو صامت لا يريم. فلما انتهيت من البوح بأوجاعي انتفض وسحب يدي:

ـ قم معي.

ـ إلى أين؟.

ـ سأخبرك في الطريق.

***

هبطنا من الأتوبيس في ميدان التحرير، وأخذتنا شوارع وسط البلد بسحرها الغامض المنبعث من جوف زمن مضى، حتى انتهى بنا المطاف إلى شقة على بابها لافتة كبيرة مكتوب عليها "صحيفة الجماهير". ضغط الجرس على

باب غرفة عليها قطعة نحاسية صغيرة محفور عليها "رئيس التحرير"، فانفتح عن سعيد الحامدي بقامته الطويلة ووجهه المكسو بالصرامة، الذي طالما طالعني كل أسبوع معتليا مقاله الناري، الذي كرسه لمحاربة الفساد والتسلط. صافحنا وقال في بشر:

- تفضلا.

وما إن جلسنا حتى بادر الحامولي وهو يشير بيده إلي وعيناه على وجه الأستاذ الحامدي:

- الزميل علي صابر حسنين، خريج كلية التجارة، ورفيق درب، يريد أن يعمل معنا محررا اقتصاديا.

صمت الرجل برهة ثم توجه إلي قائلا:

- هل سبق لك العمل في الصحافة؟.

- لا .. .كنت أعمل محاسبا، وفضلا عن خلفيتي الدراسية، فأنا أتابع الشؤون الاقتصادية في الصحف باستمرار.

انتاب الحامدي صمت طويل، ولاذ برشفات الشاي، وتملكني ندم شديد على القدوم إلى هنا، ومقابلة هذا الرجل. ورحت أتابعه وهو يحاول أن يخبئ ارتباكه دون جدوى. وقلت في نفسي:

- يا ليتني لم أعرفك عن قرب.

وعزمت على أن أستأذن لأترك له فرصة للتفكير، ثم أخرج من هذا المكان ولا أعود إليه أبدا. لكن لم يلبث أن انفرجت أساريره، وتوجه إلي قائلا:

- محاسب الجريدة طلب إجازة بدون راتب، ابتداء من الشهر المقبل، لأنه حصل على عقد عمل بالإمارات، ويمكن أن نستعين بك في سد هذا الفراغ.

وهكذا عدت إلى ممارسة مهنتي التي أحبها. واحتضنتني المؤسسة الجديدة بدفئها، وقلت في نفسي: "فرجت وكنت أظنها لن تفرج". وتفانيت في عملي حاملا الجميل للحامولي، دون أن أنسى لحظة واحدة أن احتمال عودة محاسب الجريدة في أي وقت وارد. وكان علي أن أدبر طريقة عمل بديلة، حتى لا أجد نفسي في الشارع مرة أخرى. ولذا ألقيت نفسي في رحاب المحررين الاقتصاديين، أتعلم منهم، وأجرب بين حين وآخر فن الكتابة الصحفية. واستضافني الحامولي في شقته، وصار أصدقاؤه أصحابي. وعدت مرة أخرى إلى المقاهي أتحدث باستفاضة في السياسة، وأحلم لوطني بمكانة أرقى، ولنفسي بوضع آمن.

لكن الأمان لم يأت أبدا. ذهب إلى الأبد في ليلة لن أنساها. محفورة في ذاكرتي، بقدر الخوف والعذاب والحيرة التي تملكتني في نصفها الأخير، وبقدر صرح الأماني العريضة الذي شيدته في نصفها الأول مع الرفاق.

عدت إلى شقة الحامولي فلم أجده. خلعت ملابسي. تركت جسدي للماء الساخن يعبث به كما يحلو له. لكن رنين الهاتف أخذني من متعتي، وسحبني من تلك النشوة التي كانت تهزني وأنا أجتر ذكريات غاربة مع سلمى. رفعت السماعة فجاءني صوت الحامولي مليئا باللهفة والرعب:

ـ الشرطة تبحث عنا .. اترك الشقة فورا.

ومادت الأرض من تحتي. وكأن سلالم العمارة أرضا منبسطة، قطعتها في خطوة واحدة، ثم انبعث في الليل. أجري .. أجري. وكأن الشوارع خالية من المارة. لا تهمني آلاف العيون التي تتابعني مستفهمة، ومستغربة التفاتي المتلاحق في كل خطوة. ربما ظنوا أنني مجنون هرب من مستشفى الأمراض العقلية. غريب ضاع ماله ويبحث عن سارقيه. سارق خائف من ضحاياه، أو من

الشرطة. الشرطة .. آه منها. هنا في البراح الأصفر لا يوجد أثر لها. لا تسمع شيئا عن سيرتها، التي تقلق أهل المدن هناك في الوادي الفسيح، و الصعيد الممتد. فقط أنا وعم عوض وأحمد حملنا قلقنا إلى هنا. سمعت صخور المكان ورماله، ربما لأول مرة، كلاما عن رجال الشرطة. كنا في البداية نهمس به، وكأننا لا نزال مختبئين في البيوت، التي تنتهي كل مجموعة منها بقسم للشرطة، حتى اطمأنت قلوبنا مع الأيام إلى أننا بعيدون كثيرا، فارتفعت حناجرنا بالحديث عن أيامنا التي راحت في الخوف والألم مع الشرطة.

(ك)

لم نكن قد شفينا تماما من الخوف، حتى تجدد فجأة، وهز الأرواح وخلايا الأجساد المتعبة، التي كاد الهروب أن يجهز عليها. كنا نسمع حكايته ونحن نرتعش، وعقولنا مشدودة إلى المجهول. هذا الذي حل علينا دون موعد ذات ليلة فأعاد إلينا كامل رعبنا، وبعض وجع الذكريات المفجعة.جاء إلينا من الظلام ودبيب قدميه يخالط غطيط الرجال النائمين. تاه كل منهم في حلمه، وبقيت وأحمد وعم عوض ساهرين كعادتنا، قابضين على سرنا الذي لا يعرف الرجال عنه شيئا.

كان يلهث ويرتجف إعياء وهلعا. راح يلقي في آذاننا كلمات متقطعة عن مطاردة حامية، وسنوات عجاف ضاعت هباء. قال له أحمد:

ـ استرح ثم احك لنا بالتفصيل.

لكنه طلب جرعة ماء وطعام، ثم أردف وهو يغالب حزنا دفينا، ودموعا سحت على خديه، راح يمسحها بطرف جلبابه:

ـ قبل الطعام والشراب أريد الأمان.

تفرس عم عوض وجهه بإمعان وقال:

ـ أهناك ما يخيفك؟.

فقال في انكسار:

ـ أنا رجل طيب دفعته الظروف إلى أن يصبح مطاردا.

فابتسمنا جميعا ولسان حالنا يقول:

ـ تخيرت المكان المناسب والصحاب الملائمين.

وأردف:

- لا وقت لدي كي أخفي عنكم شيئا.

والتفت إلى عم عوض قائلا:

- لهجتك توحي أنك من الصعيد، ولست من البدو.

ثم إلي:

- أنت فلاح من دلتا مصر.

فقال له أحمد:

- وأنا يا عم.

فتفرس في وجهه وقال:

- كلنا مصريون. وظروفنا واحدة..

ونظر في وجوه الجميع وقال:

- أنا واثق من مساعدتكم.

فنظر إليه عم عوض مليا وقال:

- إذا أردت مواصلة طريقك، فانعطف شرقا إلى الجنوب لتصل إلى منطقة "بئر قصر السر"، ومنها يمكن أن تصل مرسى مطروح في أمان.

فنظر إلينا جميعا وقال في رجاء:

- أبقى معكم أياما أسترح فيها من عناء الطريق.

ثم فرك عينيه بيديه، وقال وهو يتثاءب:

- لم أنم من يومين.

***

صار عم روفائيل واحدا منا. تعاطفنا معه، وأحببنا تلقائيته الآسرة، لكننا خشينا أن يكون قدومه بداية لرحلة جديدة من الضياع. وحلت في رأس كل منا بقوة جارفة ذكريات الخطوة الأولى للهروب.

تاه عم عوض في خوفه وقال له معاتبا:

ـ تقتل جنديين من حرس الحدود.

فرد غير نادم:

ـ أخذا مني ما حصلته بعرقي في ست سنوات من الكدح في ليبيا.

ـ وجئت إلينا وليس معك شيء.

ـ يكفي أنني هربت بجلدي وإلا كنت طعاما رخيصا للضباع والذئاب.

ـ هل حاولا قتلك؟.

ـ اكتفيا بتجريدي مما كان معي. بكيت طويلا ليتركوا لي أي شيء أعود به. شيء واحد أضعه أمام عيون أهلي المنتظرين عودتي. لكنهما كانا مصرين بشدة على أن يسلبا كل شيء. صرخت فيهما:

ـ هذا ليس من حقكما.

فقهقها، وقال أحدهما:

ـ هنا لا يوجد شيء اسمه حق.

وباستعطاف واهن قلت لهما:

ـ أريد أن أقابل قائد المعسكر.

عادا إلى القهقهة، وقال الثاني:

ـ بيننا وقائد المعسكر أميال وأميال.

وحين أدركت أنهما طامعان في حاجياتي، مددت يدي في جيبي وأخرجت الطبنجة الإيطالية التي كنت قد اشتريتها من طبرق لتحميني من وحوش

الطريق، وعاجلتهما بطلقتين في صدريهما. تكوما صريعين وهممت لأحمل متعلقاتي وأنطلق، لكنني سمعت دبيب أقدام كثيرة تأتي مسرعة، فتركت كل شيء مكانه ومكثت غير بعيد. وسمعت أنات وصرخات وأوامر بالبحث عن القاتل، فأطلقت ساقيي للريح . ولولا الليل الدامس، ولو لم أحتم بتبة رمل عالية، لكانوا قد لحقوا بي ومزقوني، وصرت طعاما رخيصا لذئاب الصحراء وضباعها.

يلوذ بصمت طويل، ثم يضحك في أسى:

ـ عموما أنا أخذت ثأر جاري إسماعيل أبو أحمد، الذي قتله حرس الحدود قبل سنوات وهو يحاول أن يعبر السلك الحدودي الشائك بين مصر وليبيا.

يعود إلى صمته، ثم ينظر في وجوهنا المتطلعة إليه، ويمضي في مرارة:

ـ أمروه بالتوقف إلا أنه هم بالهروب، فأطلقوا رصاصا لتخويفه، لكن واحدة استقرت في صدره فمات. كان معه رجل من بلدنا امتثل للأوامر، ففقد أشياءه واحتفظ بحياته، ليحكي لنا. وحين اعترضني الجنود، كان الأمران ماثلين أمامي. إما أن أنجو بنفسي، أو أفقد أشيائي.

فقلت له مستنكرا:

ـ لكن أحدا منهما لم يقتل أناسا أبرياء.

فرد باحتجاج شديد:

ـ هؤلاء لا فرق بينهم وقطاع الطرق.

ـ هم حراس لحدود وطننا. مصريون مثلنا. وحتى لو كانوا ليبيين فهم رجال يؤدون واجبهم نحو بلادهم، كما أنهم إخوة لنا في العروبة.

عاد إلى استنكاره:

ـ من يؤدي واجبه لا يسرق.

ـ ربما تسرعت في الحكم عليهما.

ـ لم تكن معي.. أنا أعرف جيدا أنهما كانا يريدان سلب ما معي دون وجه حق.

فقلت له وأنا أستعيد ما حدث لي دفعة واحدة مدركا نبرة الصدق في صوته:

ـ بعض الناس يسيئون استعمال السلطات المخولة إليهم بحكم مواقعهم، لكن هذا لا يعني أن جميع من يحرسون حدودنا من أمثال هذين الطامعين.

وأمن أحمد على كلامي فقال زافرا في مرارة:

ـ لقد عانينا طيلة حياتنا ممن يسيئون استخدام سلطاتهم.

وارتسمت على ملامحنا كآبة وأسى، وتاه كل منا في حكايته المؤلمة. برهة صامتة اختصرت تفاصيل أسابيع طويلة كنا نهرب فيها من مدينة إلى أخرى، والذعر يملأ الأرواح من ملاحقة الشرطة. وقعت أنا في أيدي رجالها بعد ثلاثة أيام فقط من مغادرة شقة الحامولي. ضرب وتنكيل وحبس، حتى انتهى الأمر إلى القضاء، فحكم على ثلاثة منا يومها بأحكام مخففة، وتمتموا في هدوء:

ـ لم نفعل شيئا، ولكن ستة أشهر ليست بالكثير.

وسجن آخرون سنوات طويلة، أما أنا فقضوا بسجني ثلاث سنوات. لم أكن في نظرهم بريئا لأنهم وجدوا في شقة الحامولي كتابي "رأس المال" لكارل ماركس، و"ما العمل" للينين، ومسودة كتاب كنت أعتزم تأليفه عن الفساد السياسي في مصر، وبعض وثائق ومستندات لتحقيقات صحفية كان الحامولي يعتزم نشرها عن تبديد المال العام، وعشرين نسخة من منشور علني كان قد وزعه في نقابة الصحفيين عن حرية التعبير. اعتبروني شريكا في كل هذا، وهو

أمر لا أنكره، فالكتب أتعاطاها دوما مهما كان لونها السياسي، فهي في نظري تحمل رؤى إنسانية لابد من التعامل معها بوعي. ومستندات التحقيقات الصحفية أمر عادي من حق أي صحفي أن يحوزها، ولا يبوح بمصدرها. أما الذي كان مفاجأة لي ارتعدت لها فرائصي وأنا ملقى بين يدي ضباط الشرطة شبه فاقد الوعي من الصفع واللكز والشد والجذب والبصق والإهانة هو أنني عضو في تنظيم يخطط لقلب نظام الحكم.

وقادت التحقيقات إلى تبرئتي من التهمة الأخيرة، فلم أكن قد فعلت شيئا من هذا القبيل والقانون لا يحاكم النوايا. لكنني في نظر السلطات كنت متهما باعتناق أفكار تشكل تهديدا للأمن الاجتماعي والسياسي.

***

وأغلقت علينا زنزانة واحدة أنا والحامولي وبعض الرفاق. وكانت تجربة مختلفة كثيرا عن سجني الأول، لدرجة أنني مع الأيام آمنت بأن السجن الذي دخلته جراء تلفيق تهمة الشروع في قتل مراد غالب كانت نزهة مقارنة بالسجن السياسي. وللمرة الأولى في حياتي أدركت أن الحكومة ترأف بمن يراهم القانون مجرمين أو من هم مجرمون بالفعل، ولا تأخذها أدنى رأفة بمن يخالفونها في الرأي حتى لو كانوا يحبون وطنهم ويخلصون له تماما.

ثلاث سنوات قضيتها خلف جدران السجن السياسي. ومع توالي الأيام العصيبة وهنت إرادتي، وانتابتني حالة اكتئاب شديد. كنت صامتا أغلب الأوقات. ذهني شارد في الألم. عيناي ذاهبتان إلى الفراغ. في الليل تأتيني كوابيس عنيدة، لا تتركني حتى تصرعني جثة هامدة، وأنا أقاوم أشباحا غريبة، وأياد ضخمة تطبق على أنفاسي. لهاث وصراخ مكبوت وزبد يفور على شفتي، وعرق يتصبب غزيرا، وإحساس لا ينتهي بالإنهاك والانقباض، ورغبة

في الانسحاب إلى البعيد. صداع يكاد أن يحطم رأسي. جسد بارد كأنه مغموس في الثلج. آلام في الصدر والظهر لا أعرف سببها. أطرافي مثقلة بجيوش جرارة من نمل شرس. حلقي يلفظ كل لقمة أعاني من أجل بلعها.

وحين غلبني الهذيان، وتهت في عوالم غريبة، ونزعت نفسي من زحمة الرفاق، قال طبيب السجن:

ـ يجب أن يذهب إلى المستشفى.

لكن توصيته لم تجد طريقها أبدا إلى التنفيذ، فقد تم نقله بعد أيام إلى عيادة سجن آخر. ذهب وأخذ معه عطفه على حالي، وتركني نهبا للوحوش الآدمية. ضباط مسعورون، لا هم لهم سوى التنفيس بضربنا عن أوجاعهم المكبوتة وعقدهم العميقة المتربصة في اللاشعور ربما منذ طفولتهم المبكرة.

وفي آخر أسابيع السجن جاءني المأمور وقال لي:

ـ لو لم تكن مدة سجنك قد أشرفت على الانتهاء لكنا أحلناك إلى مستشفى الأمراض العقلية.

***

ولم تكن هناك مصحة أفضل من قريتي.

عدت إليها وحيدا ذات مساء أجر خطواتي على التراب والحصى، وعيني تطالع شرفات المنازل الواطئة وهي تمتص آخر رشفات الضوء المنكسر من شمس الغروب، فينبت الدفء بين جنباتها، ويمتلئ أصحابها بحزن شفيف. هناك على ضفاف الترع يكفي أن تجلس وقت العصر وتحملق في المياه المنسابة تحتك، وترفع هامتك فلا ترى سوى الأرض الخضراء البراح، حيث تنسى همومك. يكفي أن تعلق عينيك بشواشي نخلة شامخة أو شجرة نبق سامقة حتى ترحل

الكآبـة شيئا فشيئا، وتذهب أوجاع السجن، وقسوة أهل المدينة، وظلم المؤسسات المتوحشة.

قلت لأمي في اليوم العاشر لعودتي:

- سأبقى هنا.

قالت وعيناها تتقلب بين فرح وحيرة:

- لا ترحل عنا.

وقلت لأبي في المساء ونحن نتحلق حول موقد يقينا برد الشتاء:

- أتعبتني المدينة وقهرني السجن.

فرد وهو يربت على كتفي:

- ازرع معي الأرض والله لا ينسى عباده.

فقلت له مبتسما:

- سأبحث عن وظيفة في مدينة بنها .. لكنني لن أسكن إلا قريتنا.

ثلاثـة أشـهر بـلا عمل أيتها المدينة القاسية. قطعت شوارعك ذهابا وإيابا. مـرارة في حلقـي وعـيني زائغـة وقدمـاي متهالكـتان مـن طـول النهب وراء أمل يتضاءل مع الأيام. أعود مساء إلى أبي وأمي منكسرا، فيقول أبي:

- قلت لك ازرع معي الأرض.

وتنظر إليه أمي ضاحكة:

- من يسمعك يقول إنك تمتلك الفدادين.

في الشـهر الـرابع أوجـدت سـلطات الأمن حلا لمشكلتي.. هروب في هروب وضـياع في غربة. هكذا انتهت رحلة البحث عن العمل إلى فرصة رخيصة في عمق الصـحراء البعـيد. كنت جالسا مع أصدقائي القدامى في ليلة حزينـة، نتحدث عن المظاهرات التي تجتاح بنها، عندما جاء أبي يلـهث:

ـ رجال الأمن اقتحموا دارنا ويبحثون عنك في بيوت القرية.

وجريت ما وسعني .. إلى أين؟ .. لا أدري. أمر في فراري بقرى وعزب وكفور فلا تلقي لي بالا، وعيناي معلقتان بالنوافذ المفتوحة على الزراعات، والأبواب المغلقة على أحلام بسيطة. أقول للعابرين ليلا:

ـ السلام عليكم.

فيردون السلام في عجالة. لا أحد منهم يشعر بالهم الساكن داخلي والحيرة التي تستشري في نفسي ولا يقول لي تفضل يا غريب أو يهديني إلى طريق تأخذني إلى الخلاص. لا شيء يجيرني سوى المسافات الطويلة التي أخذتني إلى كفر شكر ومنها إلى الأسكندرية.

(ل)

متوحشة أيتها المدنية. أخذتيني من البساطة الآسرة في قرية الأهل إلى مجاهل شوارعك المكتظة بأناس لا يعرفوني. غريب على بحرك يا أسكندرية وفي حلقي ملح أجاج، وشراعي منطو على أحزاني الدفينة، ومجدافي يكسره الخوف والجوع، وعواصف القلق هبت على أيامي الآتية فلا أدري إلى أين أمضي.

مضيت ليلا إلى مقهى منزو في ركن حارة بعيدة في حي كرموز، وقلت للنادل:

- شاي بحليب.

وانتظرت مجيئك يا حماد فلم تأت. مرت الساعات كأنها دهر بأكمله، حتى صرت الزبون الوحيد بعد أن انفض رواد المقهى إلى مهاجعهم. وقال لي النادل الكلمة التي كنت أخاف سماعها:

- الحساب.

فعرفت أن لحظة التشرد في ليل الشوارع قد حانت، ومددت يدي في جيبي ووزعت ما أملكه بين شاي المساء وشاي الصباح وقلت في نفسي:

- حتى الآن لم يمت أحد في بلادنا جوعا.

لكن الجوع كان يتمدد في شراييني ويهز خلايا جسدي هزا فأكاد أن أسقط إعياء وهما. قمت من مقعدي لا أعرف إلى أين أذهب. ليس لي أحد هنا سوى حماد عبد الستار. زميل الجامعة الذي فرقت الأيام بيننا لكنها لم تنل من عقلين ائتلفا، والذكريات الجميلة لم تغرب بعد. كنت أهاتفه بين حين وآخر،

فتواصلت بيننا الحكايات والهموم. فور وصولي إلى الأسكندرية اتصلت به في مقر عمله فوصف لي المقهى وقال:

ـ انتظرني هناك.

وهاأنا يا حماد انتظرت حتى جاءت اللحظة التي سيغلق فيها المقهى أبوابه بعد أن تفرق رواده، كل إلى فج يقوده لمخدعه. ولم يكن هناك مكان آخر تواعدنا على أن نلتقي فيه. كان لا بد أن أقف خارج المقهى ولو لدقائق، فربما يتحقق فيها المراد قبل أن يحل اليأس التام.

ولمحني النادل من خلف زجاج المقهى فترك المسحة والماء المنساب على الأرض يجرف ما تركه الزبائن من أوساخ أحذيتهم الرخيصة. أمسك كتفي وقال:

ـ تلزم خدمة.

فواجهته بابتسامة حائرة:

ـ انتظر صديقا.

فتفرس في وجهي قائلا:

ـ ما اسمه؟.

فرددت على الفور:

ـ حماد .. حماد عبد الستار.

فابتسم وقال:

ـ سيأتي.. هو لا يخلف موعدا أبدا.

ـ لماذا تأخر إذن؟.

ـ يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل، وربما أخرته ظروف قاهرة.

سرت بيننا لحظة صمت. صمت حيرتي وصمت استغرابه، لكنه قطعها قائلا:

- هل تواعدتما؟.

- نعم.

- إذن تعالى واجلس داخل المقهى وسننتظره سويا.

ودخلت إلى المقهى ممتنا له، وقلت في نفسي: "لم تخل الدنيا بعد من الشهامة". ولم يخذلنا حماد جاء يلهث، واختلط اعتذاره بالتقاء يدينا في مصافحة حارة ودودة. وقال:

- هيا.

ومشيت إلى جانبه، موزع بين الفرحة والخوف والأسى، حتى وصلنا إلى شقته. غرفتان وصالة بالطابق الرابع، انتهينا إليها بعد قرقعات متعبة على سلالم حجرية مكسورة، وسبعة أبواب استقبلتنا تنغلق على قاطني البناية الذين لا يعرفون شيئا عن الهارب الغريب. جلست في الصالة الضيقة. راحت عيناي إلى الكتب المرصوصة بعناية في مكتبته الصغيرة، وراحت معدتي إلى المائدة المتواضعة، المنزوية في الركن. قلت له:

- سأموت جوعا.

ونادى زوجته فجاءت من المطبخ تسبقها روائح الطعام. قال لها ويده على كتفي:

- على صابر الذي حدثتك عنه كثيرا.

وامتلأ وجهها بابتسامة عريضة وقالت:

- أهلا وسهلا.

وحـول الطعـام عـرفا الحكايـة، وسـرت لحظة وجوم وحيرة قطعها حماد قائلا:

ـ لا تحمل هما.

ـ لا أريد أن أكون حملا ثقيلا عليك.

ـ لا تقل هذا .. أنت أخي وزوجتي أختك.

وسـهرنا لـيلة دافـئة بالمشـاعر الطيـبة، متوجسة من الغد المجهول. عند الفجر تركني وخلد وزوجته للنوم. أنا لم أنم.. كيف ينام الغريب المطارد؟ ..

اسـتيقظ صـباحا فوجـد رأسـي مدفونـا في كـتاب. نظر في عيني المجهدتين وقال:

ـ زاد الوعي من همومنا.

فقلت له وأنا مغموس في وجعي:

ـ داء حبيب.

طالعت عيناه الكتب المكومة على كنبة الصالون بجانبي وقال:

ـ نهرب فيها فتهرب منا.

فقلت له وأنا أعيد ترتيبها:

ـ صنعت لنا عالما جميلا .. لكن الفرصة لم تسنح بعد.

فزفر في ألم:

ـ ربما لن تسنح أبدا.

وتذكرت نقاشنا القديم فقلت:

ـ كنت متشائما وخالفتك الرأي، واليوم أقر أنك كنت على صواب.

فابتسم مربتا على كتفي:

ـ لا تقنط .. يكفي أنك حاولت أن تفعل شيئا.

ـ لكن التيار المضاد كان أعتى من قدرتي.

ـ من يدري، فقد نتمكن من الإبحار يوما ما.

وتذكرت قصيدته الفياضة التي كتبها أيام الجامعة ومنحها عنوان "الإبحار ليلا" فقلت له:

ـ هل صدر ديوانك الأول؟.

ـ لا أحد يهتم بقراءة الشعر.

ـ تقصد لا أحد يهتم بنشره.

ـ نشرته على نفقتي الخاصة، ولن أكرر التجربة.

ـ لم يتم توزيعه؟.

ـ كان على حساب قوت أسرتي.

ـ عزفت إذن عن الكتابة؟.

ـ أكتب لنفسي.

ـ والناس؟.

ـ أقرأه على أصدقائي المقربين وزملاء العمل، وأردده وأنا أهيم وحيدا على شاطئ البحر، وتحفظه زوجتي.

ـ والمنتديات الأدبية؟.

الشللية أفسدت كل شئ، وأنت تعرف أنني لا أجيد النفاق ولا أطيق تلك الأجواء الموبوءة.

ـ حقا.. ضيعنا المنافقون.

وجاءت اللحظة التي ما حسبتها. كان عليه أن ينصرف إلى العمل، فكان علي أن أذهب إلى أين؟ .. لا أدري. قال لي بعد أن ارتدى ملابسه:

ـ البيت بيتك.

وتناهى إلى مسامعي صخب طفله وطفلته في الداخل فقلت:

- سأنتظرك على المقهى.

- لكنني أعود متأخرا.. أعمل بعد الظهر في شركة خاصة لألبي احتياجات أولادي.

واهتديت إلى ما سيجعله يتركني أذهب فقلت له في عجل:

- سأبحث عن عمل وسيكون المقهى مكان لقائنا.

صمت برهة وسألني:

- هل معك أوراق ثبوتية؟.

فأجبت ضاحكا:

- معي بطاقتان شخصيتان.

نظر إلي متعجبا، وقال:

- كيف؟.

- لا تشغل بالك بهذه المسألة سأشرحها لك فيما بعد. المهم أن مهنتي في إحداهما هي محاسب.

فكر برهة قصيرة وقال:

- سأحاول أن أجد لك وظيفة في الشركة الخاصة التي أعمل بها.

- سأتعبك معي.

- لا تقل هذا أبدا.. إن لم أقف بجانبك في هذا الظرف فمتى سأعمل شيئا من أجل صديق غال.

قلت له ونحن نهبط سلالم البيت:

- أريد مساعدتك في الحصول على غرفة بالإيجار.

- ألم تسترح عندنا؟.

ـ بلى .. لكن هذا هو الوضع الطبيعي.

هز رأسه صامتا ثم قال:

ـ دعنا أولا نجد فرصة العمل، والحصول على سكن أمر يسير.

***

واشتريت صحيفة "الأهرام"، وطالعت على الفور صفحة الوظائف الخالية، وقلت في نفسي:

ـ قد يتعثر حماد في إيجاد فرصة عمل لي.

كانت الوظائف الخالية بالإسكندرية ضئيلة، ولم يكن يناسبني منها سوى وظيفة مندوب مبيعات. هاتفت ثلاث شركات، وحصلت على العناوين. ذهبت فوجدت أمامي مئات الشباب المنتظرين. تركت لدى القائمين عليها سيرتي الذاتية، وصور البطاقة الشخصية. لم أكتب بالطبع تجربة السّجن في سجل خبرتي، مع أن هذه الفترة أنضجتني بما لم تفعله الجامعة، ولا مؤسسة مراد غالب، أو صحيفة "الجماهير"، ولا كثير من الكتب التي قرأتها أيام البراءة والأمل.

ترددت كثيرا في أن أترك هويتي وسيرتي لأناس لا أعرفهم وأنا المطارد التعيس. لكن لم يكن هناك بد من ذلك. قلت في نفسي:

ـ سأتوه في الزحام.

في اليوم التالي رن الهاتف ثلاث مرات في بيت صاحبي، وردت زوجته، فهاتفت زوجها، ثم وجدت نادل المقهى ينادي:

ـ الأستاذ علي حسنين.

قمت مسرعا إليه، فأشار إلى منضدة راسخة في ركن المقهى وقال:

ـ تليفون.

وقـال لي حماد إن الشركات التي تقدمت للعمل بها تريدني لعمل مقابلات شخصـية. دفعـت حسـاب المشـروبات الـتي احتسـيتها ومضيت. ذبت في شوارع الإسـكندرية المغسـولة بالمطـر. قالـت لـي سـكرتيرة الشـركة الأولى بابتسـامة مصطنعة:

ـ نريد عشرة جنيهات رسم دخول الاختبار.

ولم يكن معي سوى سبعة جنيهات فقلت لها:

ـ لم أعمل حسابي.

فتقطب جبيـنها وصـمتت، ثـم انشـغلت بـيد شـاب آخـر غاصت في جيبه لـتخرج لهـا الجنـيهات العشـرة. لم تلتفـت إلـي فانصرفت إلى الشركة الثانية. انـتظرت دوري في الطـابور الطويـل. بعـد ثـلاث ساعات نادوا اسمي فدخلت إلى حجـرة وثـيرة، بعدمـا انفـتح بابهـا علـى ثلاثـة رجـال يـتجاورون على مكتب عـريض. أشـار أحدهـم إلى مقعـد موضـوع بـزاوية تطـل عـلى وجوههـم جمـيعا فجلست. نظر كبيرهم إلي مليا وقال:

ـ حسب البيانات المسجلة في بطاقتك الشخصية عنوانك القاهرة.

ـ نعم.

ـ وتعمل محاسبا.

ـ واستقلت.

ـ لماذا؟.

تصنعت ابتسامة واريت بها ارتباكي وقلت:

ـ ضقت بالعمل في الحكومة.

ونظرت في عيونهم فشعرت أن الإجابة لم تكن كافية لإقناعهم، فأردفت:

ـ وكان المرتب ضئيلا.

فهز أحدهم رأسه وسألني:

- هل عملت مندوب مبيعات من قبل؟.

- لا .. لكن لدى فكرة مبدئية عن طبيعة هذا العمل.

وسادت لحظة صمت مرت ثقيلة. قطعها الرجل الجالس على اليسار حين سألني:

- أتعرف القاهرة جيدا؟.

فتذكرت الماضي دفعة واحدة، وأدركت أن تشردي الطويل في شوارع القاهرة لم يكن بلا فائدة، فقلت في ثقة:

- من أقصاها إلى أدناها.

وتدخل كبيرهم:

- نريد أحدا بهذه المواصفات.

فاختلطت فرحتي بخوفي ولم أرد. فأردف:

- نحتاج مندوبا لشركتنا في القاهرة.

لذت بالصمت وقلت في نفسي:

- يا للأقدار.

تحدثوا عن المرتب الكبير، والعمولات المجزية، وطبيعة العمل، واستبشار الخير في شخصي، والأمل في مستقبل أفضل داخل الشركة، التي تنمو مع مشرق كل يوم جديد، وأنا شارد تائه لا أسمع شيئا، حتى قال أحدهم:

- تعالى في الغد لاستلام العمل.

وقمت مسرعا إلى مقر الشركة الثالثة، فوجدت بابها مغلقا. سألت بواب العمارة فقال لي:

- تأخرت يا أستاذ.

***

عدت إلى المقهى كسيرا، والشمس تسحب دفئها الأصفر الذي وهبته للشرفات منذ الضحى، والناس يدوسون الشوارع مهرولين إلى البحر هربا من أجواء العمل الخانقة، وصداع البيوت الضاجة بصخب العيال. جلست أنتظر حماد مرة أخرى. وحين هل عند العاشرة ليلا زاد برؤيته انكساري. كان مهموما، لم تفلح الابتسامات المغتصبة في إخفاء حزنه. أخذ رشفة من كوب الشاي الساخن وقال:

ـ ماذا فعلت؟.

فابتسمت في سخرية:

ـ عدت بخفي حنين.

ـ كيف؟.

ـ الشركة الأولى يبدو أنها وهمية لمحتالين يستغلون حاجة الشباب إلى العمل، فيعلنون عن وظائف بالصحف، لا تكلفهم الكثير، فيأتيهم آلاف الشبان مسرعين، ثم يجمعون منهم نقودا طائلة بدعوى أنها رسوم إجراء الاختبارات المطلوبة للالتحاق بالوظيفة.

ـ للأسف أمثال هؤلاء انتشروا في بلادنا بشكل مخيف.

ـ والثانية قبلتني للعمل مندوبا للمبيعات، شرط أن أعمل بالقاهرة، وهذا مستحيل.

ـ والثالثة؟.

ـ تأخرت عليها فوجدتها مغلقة الأبواب.

لم أسأله إن كان قد وجد لي فرصة عمل في الشركة التي يعمل بها كما وعدني. هو لم يقترب من الموضوع، لكن هروبه من ملامسته كلما ساقنا الحديث

المتبادل إلى هذه الطريق، جعلني أفهم كل شيء. ووجدت نفسي أقول له ونحن نسير إلى شقته:

- لا يهمك .. يكفي أنك آويتني .. وأعطيتني نقودا من قوت أولادك.

فامتلأت ملامحه أسفا ممزوجا بمسحة غضب. قطب جبينه وثبتت مقلتاه وقال:

- هذا كلام يغضبني جدا.

فربت على كتفه وقلت:

- وما ذنبك أنت.

- أليست للصداقة واجبات.. فما بالك برجلين يجمعهما درب واحد وتحدوهما آمال مشتركة.

- أنت ذو همة، وأمثالك لا يجب أن نثقل عليهم.

- إن لم أكن لك في مثل ظروفك هذه فعلى الدنيا السلام.

- المسألة ليست مأوى .. هناك ما هو أصعب.

نظر في وجهي مليا وقال:

- تقصد هروبك من المباحث؟.

- نعم.

- كان من الممكن أن أكون مكانك .. فهل كنت ستتخلى عني؟.

لم أرد لكن عزما على فعل شيء ما راح يكبر داخلي قبل أن نصعد السلالم إلى شقته.

***

كنت قد سمعت الليلة الماضية في المقهى لغطا بين مجموعة رجال قدموا من الصعيد بحثا عن عمل في الأسكندرية حول فرص شغل متاحة بمزارع الشعير في مرسى مطروح.

كانوا منقسمين بين المكوث في الأسكندرية، ربما تجود الأيام بالمراد، والذهاب إلى مطروح لعل هناك تشفى جراح أنفسهم التي نكأها الانتظار الطويل على المقهى، بجيوب وبطون خاوية. تابعت جدالهم قبل أن يأتي حماد وينقلني إلى زاوية بالمقهى بعيدا عنهم. كانوا متشابكين حول السفر. بعضهم دب اليأس في نفسه فقرر العودة إلى بلده خالي الوفاض. حين هبطت في اليوم التالي إلى المقهى في الضحى لم يكن أحد منهم موجودا. اقتربت من النادل وقلت له:

ـ المقهى هادئ اليوم.

ـ لم يهل الزبائن بعد.

سقت الحديث في الاتجاه الذي أريده وقلت:

ـ خاصة الصعايدة.

هز رأسه وقال:

ـ هؤلاء رحلوا نهائيا.

ـ إلى أين؟.

ـ إلى مرسى مطروح.

تعمدت عدم معرفة أي شيء وسألته:

ـ هل سيعملون هناك في المعمار أيضا؟.

ـ في المعمار، وفي حصاد الشعير، وغيرهما.

وعدت إلى سؤاله:

ـ هل هذه فرص عمل مضمونة؟.

قال وهو يهم بالابتعاد عني ملبيا نداء أحد الزبائن:

ـ هذا موسمها.

***

"صديقي الجميل ..

هاأنا أحاول أن أكتب لك شيئا يبقى عالقا في ذاكرتك وأنت الشاعر الموهوب، المربوط بحبال الخيال المديدة في موسيقى الكلمات العاجزة..

صديقي الطيب..

يوما ما ستحط الفراشات على رؤوسنا السكيرة بحب الوطن، فتقفز أحلامنا من رقادها، وترفرف مع هؤلاء الجميلات اللاتي تعشقن النور فيرتد إلى نحورهن سهاما ملتهبة ترديهن صريعات. لكننا لن نموت. سنهرب إلى الأمام، نمتطي جياد آمالنا المعلقة في الطرف القصي من الكون، وسنرفع أيدينا أعلاما مرشوقة في قلب خصومنا الجبارين، فلا يكن لليأس نصيب من نفسك ولو مثقال حبة من خردل..

صديقي النبيل ..

إذا أتى المساء ولم تجدني فلا يفزعك غيابي، فأنا قد تعودت على الذهاب والإياب، والإياب والذهاب، وهذا قدري. سأكون في مكان آخر، بالألم نفسه وبأمل جديد. لكن المسافات لن تفرق أبدا بيننا، سأهاتفك حين تسنح الفرصة فتطمئن على حالي..

صديقي الغالي ..

لم أشأ أن أثقل عليك وأنت كريم، وأحملك همومي وأنت لديك منها ما تنوء به الجبال. لا تغضب مني ولا تظن بي الظنون، فغضبك مني يحزنني،

ونسيانك لي يهلكني، فأنت الصاحب الوحيد، الذي يجدر بي أن أتواصل معه، وأعطيه من أيامي ما يستحق.."

صديق الرائع ..

لن أقول لك الوداع، بل أؤكد لك أن لقاءنا سيتحقق يوما ما، من أيام ليست كهذه، وظروف أفضل من تلك. سنكون وقتها قادرين على أن نطلق ابتسامات رائقة، وضحكات مجلجلة لا يعرف الخوف لها سبيلا، ونقول ما نريد دون وجل، ونرشق مطالبنا العادلة في عيون من يريدون حياة تخلو من أمثالنا..

صديقي .. إلى لقاء"

طبقت الورقة وأعطيتها للنادل. قلبها في يده وقال ضاحكا:

ـ هذا هو الحساب.

فبادلته ابتسامة خاطفة:

ـ هذا خطاب .. اعطه للأستاذ حماد حين يعود في المساء.

ومضيت مسرعا، وشمسك يا اسكندرية لا تزال مهزومة خلف تلال السحب، والشوارع باردة لا تعبأ بي، ولا تلتهب من شواظ النار المتأججة في أحشائي، ولا تعبأ أبدا بدموع الغريب.

وصلت إلى محطة القطار، وسألت عن قطار مطروح فقيل لي:

ـ سيمضي بعد ساعة.

وانزويت في مقعد على طرف المحطة. خبأت وجهي في صحيفة "الأهالي" حتى مرت الساعة بسلام.

***

استقبلتني مرسى مطروح بليلها الصافي. وأرشدني الناس إلى لوكاندة قريبة من المحطة، فبت فيها ليلتي الأولى، قبل أن أخط تفاصيل صفحة جديدة من حياتي التعيسة.

نزلت من اللوكاندة في الصباح الباكر، وانبعثت في الشوارع المغسولة بمطر الليل الراحل، أبحث عن مكان تجمع العمال الباحثين عن أرزاقهم. سألت العابرين فدلوني، وانضممت إلى هؤلاء المنتظرين. أصبحت وجها من الوجوه المتطلعة إلى أرباب العمل المارين. يأتون تباعا، يتفرسون مليًا في أجساد الجالسين. يشيرون إلى أقواها فتتبعهم منتشية، تنفض عن نفسها غبار الأرصفة. لم أكن قوي البدن، فكان علي أن أنتظر حتى الضحى العالي. جاء رجل ربع البنيان، يمشي متثاقلا، وفي عينيه خبث ظاهر. وقف وتطلع في ستة من الرجال المشرأبة أعناقهم إلى وجهه المستدير، ثم أشار بسبابته إلى قائلا:

ـ تعال.

فقمت مسرعا إليه، ووقفت أمامه، فسألني:

ـ هل لديك خبرة بمزارع الشعير؟.

ابتسمت في اطمئنان وأجبت:

ـ أنا فلاح، و..

لم يدعني أكمل كلامي وقال باقتضاب:

ـ ليس هذا هو المهم.

فتملكتني حيرة، ونظرت في وجهه مستفهما، فقال:

ـ المهم عندي أن يكون لديك استعداد أن تقيم بالمزرعة مدة طويلة.

برقت في الأفق آمال عريضة، وتراجعت قسوة التشرد إلى قيعان بعيدة، ولاحت أمامي الصحراء المسكونة بالأمن من رجال الشرطة، فقلت له بثقة:

ـ لا مانع لدي.

فرد سريعا:

ـ اتبعني..

وتبعته، ويدي تتحسس جيبي بحثا عن بطاقة هويتي، لأنه حتما سيطلبها مني. وتيقنت في هذه اللحظة أن القدر كان يرتب لي ما لم أكن أحيط به علما. فقبل سنوات فقدت بطاقتي الشخصية التي كان مسجل فيها أمام المهنة: "حاصل على بكالوريوس تجارة ولا يعمل".. وحين ذهبت لإبلاغ الشرطة كنت قد تسلمت عملي في الشركة، فتغيرت المهنة إلى "محاسب". بعد أيام وجدت البطاقة القديمة، واحتفظت بها مع الجديدة، وهاهي الظروف تقودني إلى الحاجة إليها. فقبل أن نركب سيارة صاحب المزرعة سألني:

ـ أين بطاقتك؟.

مددتها إليه بيد باردة وقلب مملوء بالرجاء. وحين وقعت عيناه على المهنة قال:

ـ مؤهل عال!..

فقطعت الطريق عليه وقلت في ثبات:

ـ أنا فلاح.. لدينا أرض مؤجرة أعمل بها مع والدي منذ طفولتي المبكرة.

ومرقت بنا السيارة تشق دروب الحصى المتعرجة، حتى لاحت هناك بقعة خضراء عزلاء، فرفع سبابته إلى البعيد وقال:

ـ تلك هي المزرعة.

(م)

لم يكن خروجي منفردا من مدينة العدوة متيسرا كما ظننت، وكان عليّ أن أتذكر جيدا أنني لست حرا، ولا أملك قرار رحيلي، الذي اعتزمت الشروع في تنفيذه. فبينما أنا أحزم أمتعتي مستريحا لسكون الليل خارج البيت والذي لا يقطعه سوى نباح كلب يصخب في الزراعات البعيدة فإذا بالهاتف يرن. وجاء المنسترلي من الداخل مسرعا، رفع السماعة ووضعها على أذنه دون أن ينطق بكلمة واحدة، ثم مدها إليّ قائلا:

ـ مكالمة لك.

وأتي الصوت آمرا:

ـ لا تمضي حتى نقول لك إلي أين تذهب.

لجمتني العبارة، فرحت أتهته بكلمات مبعثرة عن ضرورة الرحيل. لكن الصوت لم يفارقه الحزم. وقال صاحبه وهو يضغط على الحروف:

ـ نعرف هذا ونرتب كل شئ فلا تتعجل.

استجمعت نفسي وتساءلت في ثبات:

ـ متى؟ .. وكيف؟.

فزاد صوته صرامة:

ـ الزم مكانك وستعرف الليلة.

ـ لكن ..

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وضعت السماعة بيد مرتعشة وفؤاد حائر. تطلعت طويلا في عيني المنسترلي، فقال وهو يعبث بلحيته:

ـ جئت إلى هنا بأمر وذهابك سيكون بأمر أيضا.

فانقبضت، ورميت جسدي على أريكة مجاورة، وسادت لحظة صمت قطعتها متسائلا:

ـ أنت الذي..

فاقترب مني ووضع يده على كتفي:

ـ كان يجب أن أفعل ذلك. هذه تعليمات أمير الجماعة وأنا أنفذها.

في الهزيع الأخير من الليل طرق الباب ثلاث مرات. قام المنسترلي ففتحه على شاب قصير، متين البنية، حليق الذقن، يرتدي بنطالا أسود وقميصا رماديا. عيناه الوسيعتان مسحتا المكان كاملا، ورأتا ارتباكي، وأنا مقرفص فوق الأريكة. تقدم نحوي مادا يده، فانتفضت مادا يدي. التقت اليدان. يد واثقة ويد مرتعشة. وحضنني بقوة كادت أن تختلف لها أضلعي، فعرفت من يكون. وتقدم المنسترلي نحوه، ويده تشير إلى كرسي ملتصق بالأريكة، وقال:

ـ تفضل يا أخ رضوان.

لكنه، وفي لهجة مملوءة بالإلحاح، قال:

ـ لا وقت لدينا.

ثم التفت إليّ قائلا:

ـ انهض لنمضي.

ـ إلى أين؟.

ـ إلى مكان أكثر أمنا.

لم أبرح مكاني وقلت له في غلظة:

- من حقي أن أعرف ما هي وجهتنا.

فزم شفتيه غاضبا ثم زفر قائلا:

- إلى الفيوم.

- لكن

- لا تقلق لقد أعددنا كل شيء.

- كيف؟.

- لن نسلك الطريق الزراعية التي تصل الصعيد بالقاهرة. سنسير في الطرق المعبدة الملتفة حول القرى المجاورة لنا في المنيا وبني سويف، ثم ننعطف إلى الطريق الصحراوية بعد نقطة مرور العدوة بمسافة كافية حتى نبلغ مشارف الفيوم.

فأومأت موافقا، وحملت حقيبتي وسرت خلفه، وعيناي تطالعان المجهول. ودون إرادة مني وجدت نفسي أرتجف. جسدي يهتز وأسناني تصطك بقوة. وأقول لمرافقي في الرحلة باستمرار:

- الجو بارد الليلة.

فيبتسم في خبث ويقول:

- ربما.

***

كان كل شيء قد أعد بعناية. عربة نصف نقل، ونقود للمعيشة، وتأكيد متواصل على أنني سأكون في أمان عند أحد الأخوة بمدينة أبشواي. صافحت المنسترلي بحرارة وعينين مغرورقتين بالدموع. وخرجنا والليل جاثم على أطراف المدنية، والطرق أمامنا حالكة السواد تشي بالأمان. وحين انطلقت

العربة شاحرة نحو أيامي الجديدة، قال لي من يقودني إليها وهو يشير إلى نفسه:

ـ أخوك محمد رضوان.

فقلت له مبتسما:

ـ تشرفنا يا أخي الكريم.

لم أسأله عن شيء لكنه لم يدع حيرتي تطول. راح يفهمني ما حدث، ولماذا حدث؟. وعرفت أن المباحث قد تمكنت من القبض على أحد أفراد الجماعة وأنه ذكر اسمي في التحقيق تحت وطأة التعذيب المرير، وأنه قد يكشف في تحقيق آخر عن مكان اختبائي. وأن الوصول إليّ قد يعني اكتشاف خطط للتنظيم ومعرفة بعض قياداته، ولذا لا بد أن أكون في أمان. وابتسم رضوان وقال:

ـ قلب المؤمن دليله.

فنظرت إليه مستفهما فقال:

ـ في الوقت الذي كنت أنت تفكر فيه في ترك مدينة العدوة كنا نحن نعد لتهريبك منها.

فسألته في تجهم:

ـ كيف عرفتم أن اسمي قد جاء في التحقيق؟.

فقهقه وهز رأسه وقال:

ـ أنسيت أن لنا عيونا لديهم.

لم أرد عليه، بل تطلعت في الأفق الأسود حولنا، وتذكرت أشياء كثيرة غابت عن ذهني في شهور الهروب.

حين لاحت الأطراف الجنوبية الشرقية لمحافظة الفيوم، حيث المروج الخضر التي بانت في ضوء ما بعد الفجر، نزلنا من العربة، ومضت تعود

أدراجها من حيث أتت. اخترقنا قطعة الصحراء التي تفصل طريق المنيا ـ القاهرة الصحراوية عن البقعة الخضراء. تسربنا خفية بين زراعات القرى وجسورها الترابية. ركبنا عربات صغيرة تقل القرويين، الذاهبين إلى المدن، حتى وصلنا أبشواي، والشمس تجنح نحو المغيب. وحين رحنا نمضي في الشوارع بحثا عن سجني الجديد ملأني حنين جارف إلى إبراهيم، وسكنتني جملته الأخيرة التي قالها لي قبل رحيلي من العدوة بيومين:

ـ كن سيد أمرك.

جاء المساء المثقل بكآبتي ووجعي، ورحل رضوان وتركني بين جدران شقة متواضعة، لكن كل شيء فيها مرتب بعناية، وبين يدي شاب، ضعيف البنية، لا تفارق الابتسامة الغامضة وجهه. وترحمت على بيت المنسترلي، حيث الدفء الذي لولا الخطر ما فارقته.

***

جعلتني تجربة الفيوم أقرر أن أكون سيد أمري بالفعل. شعرت أنني لو تركت الأمور تجري على حالها سأنجرف إلى ما هو أبعد من الحبس والغربة والخوف. فزميلي الجديد، منازع عبدون، حرك داخلي مقتا لا حدود له لفرق تستحل دم الناس وأموالهم وأعراضهم. لم يكن له حديث كل ليلة بعد أن يعود من العمل سوى عن جماعة دينية جديدة تدعى "الشوقيون"، بدأت دعوتها في قرية كحك وراحت تمتد إلى جيوب عديدة في الفيوم، لا يروق لها نهج تنظيم "الجهاد" و"الجماعة الإسلامية"، وتقسم البشر إلى مسلمين وكفار ببساطة شديدة. من يتبعون خطاها هم المسلمون، وغيرهم خارجون عن الملة، لابد من استباحتهم دون مواربة. كان يأتي متهللا ويقول:

ـ استولى الأخوة اليوم على غنائم جديدة.

وكنت صامتا أتابع تفاصيل حكاياته عن محلات الذهب التي نهبوها. الماشية التي سرقوها من الفلاحين. الإتاوات التي تفرض على صيادي السمك في بحيرة قارون. ومع الأيام راح منازع ينسلخ عن تنظيم "الجهاد"، ويميل إلى هؤلاء، دون أن يفارقه عقله الحبيس وفؤاده الذي يهزه الطمع. ولم يكن أمامي سوى أن أدبر أمري من جديد. لكن كان علي أن أنتظر حتى أحكم خطتي، وأنا الذي لا أعلم إلى أين ستكون الطريق.

حرصت على ألا أبدي رأيي فيما يقول. لم يكن لدى سوى رأس ثابتة لا تومئ بشيء. عين ذاهبة إلى البعيد. فم مطبق يصطنع الرغبة في اكتشاف ما يجري. لكن الصمت لم يطل حين قال لي صراحة:

ـ ما رأيك في أن تنضم إلينا؟.

خفق قلبي، واهتزت أوصالي، لكني تصنعت الثبات وقلت:

ـ بماذا ينفعكم رجل مطارد؟.

لكنه رد في إصرار:

ـ معنا ستجد أمانا أكثر، والرجال عزوة.

واريت سخريتي، وأمعنت في التحايل:

ـ نحن جميعا في خندق واحد وإن اختلفت الأساليب.

لكن وجهه اكتسى بمسحة من الغضب وقال:

ـ طريق الحق واحد.

وهممت أن أتقمص شخصية إبراهيم، واستدعيت حوارنا الطويل حول الفئة القابضة على الحق، وانتصاره عليّ حين كنت أجهل أمورا كثيرة. لكنني كبحت جماح نفسي. وأدركت أن صمتي كان صوابا حين قال:

ـ أساليبهم لا تعجبني .. هذه فرق ضالة.

فنظرت إليه صامتا. وظن هو أن رأسي التي تهتز لتؤكد اعتقادي الجازم بضرورة الرحيل تعبر عن موافقتي على رأيه فقال:

ـ إذن لا مانع لديك في أن تنضم إلينا.

واهتديت إلى منفذ من هذا الحصار، فقلت له:

ـ قبل أن أنضم إليكم لا بد أن أنهي علاقتي بهم.

فرد سريعا:

ـ هذا لا يهم.

وبحثت عن مهرب جديد، فقلت بابتسامة مصطنعة:

ـ أريد أن أكون أكثر رسوخا.

وبعينين حائرتين تساءل:

ـ كيف؟.

ـ أريد أن أقرأ شيئا من إنتاج الجماعة.

فعبث بلحيته وقال:

ـ ألا يكفي ما قلته لك؟.

وبدبلوماسية لم أعهدها من قبل، قلت:

ـ يكفي ولكن ..

لم يدعني أكمل، وقال بطريقة جازمة:

ـ سأجعلك تقابل أمير الجماعة.

وسنحت لي فرصة الهرب مرة أخرى، فقلت في ثقة:

ـ لا مانع لدي.

فقال وهو يضغط على كتفي:

ـ الأسبوع المقبل.

فقلت مرحبا:

ـ على بركة الله.

ودبرت أمري خلال الأسبوع الذي يفصلني عن مقابلة أمير الجماعة. ووجدت نفسي مستريحا تماما لفكرة خطرت ببالي منذ زمن لكنني كنت أؤجلها دوما. طالما حلمت أن أترك المدن المزدحمة والقرى التي لا تخبئ سرا، وأذهب إلى الصحراء. واجتاحتني ذكريات غضة عن أيام قضيتها في مرسى مطروح في إجازة صيف الثانوية العامة، حين ذهبت مع شباب من قريتي يبحثون عن الرزق. عدت أيامها برزق ضئيل وتجربة ثرية عن المكان وبدو الصحراء.

وانتهزت فرصة خروج منازع في المساء، وفررت حاملا في يدي أمتعتي القليلة، وفي فؤادي خوف عارم من عقبات الطريق. وقلت في نفسي: حتى لو تم القبض عليّ، فلن يتغير الحال كثيرا، سيتم فقط نقلي من سجن إلى سجن آخر.

ركبت أتوبيس من الفيوم رأسا إلى الأسكندرية، ووجدت ما طمأنني في شعري الذي تهدل فوق رأسي، وشاربي النابت في عنفوان، والنظارة التي اشتريتها من العدوة لأختفي خلف عدستيها عن أنظار الشرطة. وقضيت الطريق دافنا رأسي بين ذراعيّ متصنعا النوم حتى لاحت أنوار الاسكندرية في المدى.

هبطت سريعا من الأتوبيس إلى محطة القطار الذاهب إلى مرسى مطروح. ومضى يشق ظلمة الصحراء، وضجيج عجلاته الحديدية يخالط صخب صدري النابض، الذي يتصاعد كلما لمحت شرطيا يمر بين الركاب متطلعا في الوجوه.

***

وكأن سنوات لم تمر. شعرت أنني تركت مطروح بالأمس فقط. الأماكن نفسها والألفة الحميمة. لكن هيهات أن يعود الأمان القديم.

تركت قدميَ للرصيف فأخذني إلى مكان تجمع العمال. اشتغلت في طائفة المعمار. لم أكن متمرسا فأسند إليّ مقاول الأنفار مع اثنين آخرين مهمة إمداد خلاط مواد البناء بالزلط والرمل والأسمنت والماء. ومضت أسابيع وأنا راض بالحال، مقتنعا بما في اليد، ومتخفيا خلف سحنتي الجديدة. وهداني زملاء الكدح إلى غرفة صغيرة من تلك التي أعدت للوافدين، الباحثين عن الرزق. بنايات شيدت على عجل في شارع لا اسم له. تتجاور دون اتساق. بعضها تحوي أسرة متداعية. بعضها يفترش قاطنوها حصرا وبطاطين. ولكل ثمنها. سكنت مع ثلاثة أشخاص، تعمدت أن يكونوا من الفلاحين البسطاء. اثنان من الوجه البحري وواحد من الصعيد. ودامت بيننا ألفة صنعتها ظروفنا الصعبة، وعملنا الواحد، وحكاياتنا المتشابهة عن الحياة القاسية. توخيت الحذر ما أمكنني فلا أشير إلى الماضي من بعيد أو قريب.

لم يعرفوا عني شيئا سوى أنني طالب تركت الدراسة منذ سنين لأساعد والدي على تدبير متطلبات العيش. كل شيء كان يمضي على ما يرام. عمل في البكور حتى حلول الليل. ساعات في الظهر للغذاء والراحة وأحيانا للشاطئ الأزرق والماء الممتد إلى البعيد. لقيمات يقمن الصلب نعدها على عجل بواسطة بابور جازٍ، ورشفات شاي ثقيل تنبهنا إلى ما ينتظرنا في العصر من عمل شاق، وتلبي داخلنا احتياجا لا نعرف كنهه. وإمعانا في التخفي كنت أدخن ثلاث سجائر، واحدة بعد كل وجبة. أصلي على قدر صلاتهم دون أن أزيد أية نافلة، أو أتحدث مطلقا في أمور الدين، حتى أنني كنت أقول لهم أحيانا:

- على أيديكم انتظمت في الصلاة.

وأقول في نفسي:

ـ تقية لابد منها.

وأعطتني الأيام أمانا لدرجة أنني اعتقدت في بعض الأحيان أنني طويت صفحة من حياتي، وأن العيش قد يستمر على هذا المنوال إلى الأبد. لكن القدر كان يخبئ لي ما لم يأت أبدا إلى حسباني تلك الليلة.

كنت عائدا ذات ليلة بطعام العشاء. حين انعطفت في أول الشارع لمحت عددا من جنود الشرطة واقفين أمام أحد البيوت. رأيت ضابطا يمسك أحد العمال من كتفه، وفي يده الأخرى ورقة يتفحصها مليا. ربما كانت بطاقة هويته. عدت أدراجي مهرولا إلى الشوارع الفسيحة، وانتهى بي الحال إلى البحر. جلست على الشاطئ حتى انتصف الليل، فعدت مرة أخرى. كانت الأبواب مغلقة والجنود قد رحلوا. طرقت الباب ففتح لي الزملاء، ولاموني لأنني تأخرت عليهم كثيرا. سقت إليهم حججا لم يناقشها أحد. وحلت لحظة صمت طويلة، قطعها أحدهم قائلا:

ـ أنت محظوظ.

فسألته:

ـ لماذا؟.

فقال في أسى:

ـ أتت الشرطة. فتشت حقائبنا، واطلعت على هوياتنا.

فتصنعت الدهشة وتساءلت:

ـ لما؟.

فقال:

ـ يقولون أنهم يبحثون عن هاربين ارتكبوا جريمة سرقة ليلة أمس.

تنهدت مستريحا، لكنه أردف:

- ربما يعودون مرة ثانية.

فسألته وأنا أداري هلعي:

- لماذا؟.

لأنهم لم يجدوا كل العمال وقت مجيئهم. سألوا المقيمين في كل غرفة عن عدد ساكنيها، وعرفوا أن كثيرين لم يكونوا قد عادوا بعد.

وتدخل زميل آخر فزادني رعبا:

- اشتبهوا في بعض العمال فأخذوهم.

ولما خلدوا إلي النوم. جمعت أشيائي البسيطة، وخرجت والليل جاثم فوق البنايات الواطئة. توجهت إلى المحطة وحشرت نفسي في تاكسي ذاهب إلى مدينة السلوم. وصلنا والصبح يفرش بياضه الناصع على الرمال والبيوت تحتضن شعاع الشمس الوليد.

لم أكن أعلم إلى أين أمضي، وماذا أريد. ساعات طويلة قضيتها على البحر. لم أشعر فيها بسهام الحرارة الناشبة في رأسي وعنقي، حتى هلت تباشير الفرج قبيل الغروب.

(ص)

كنت أعرف طريقي جيدا. فلا مكان لهارب سوى الجبال، ولا صحبة سوى المطاريد. مشيت بلا توان وعبرت النيل في قارب أحد الصيادين. لم يكن موجودا فجدفت وحيدا حتى استقبلني الشاطئ الثاني. ربطت القارب في إحدى شجيرات تتجاورن وترمين أطرافهن في المياه الضحلة. خرجت موليا وجهي صوب هضبة البحر الأحمر. مشيت فوق مسارب الحصباء الخشنة، أبحث عن مكان لم أره منذ سنوات طويلة.

بعد ست ساعات كاملة من السير النشط، ناديت بصوت خفيض:

ـ يا معلم راشد.

سمعت دبيب أقدام، وصوت أجزاء بندقية آلية تسحب استعدادا للمواجهة، وجاءني صوت أجش من عمق الظلام متسائلا:

ـ من ينادي؟.

فتنهدت نافضا عن نفسي طلائع خوف كان يغزوني وقلت:

ـ أنا عوض أبو سليم.

فرد صوت آخر:

ـ اعطني أمارة.

فقلت في ثقة:

ـ سأصف لكم المغارة التي تعيشون فيها.

وشرعت في الوصف لكن صوتا مستقرا في الذاكرة من زمن بعيد قاطعني قائلا:

ـ تعالى يا عوض.

واستحضرت وجه صاحبه، ومددت بصري في السواد الحالك علني أرى شيئا، وقلت:

ـ من .. المعلم راشد؟.

فرد في عجل:

ـ تفضل.

وسلكت طريقي بين أكتاف تعلوها وجوه لا أعرفها، حتى وصلت إلى عمق المغارة فلم أجد من جيلها القديم سوى ثلاثة رجال، هاشم وخليفة وحسونة. جثمت على نفسي أثقال زمن تداعى في رتابة ومرارة، وحلت خيوط ذكرى لم تكن حلوة، لكنها أورثتني تجربة لم تذهب هباء.

انقضت ثلاث ليال دون أن أذهب. وقرأت في عيون الرجال تساؤلات وحيرة، لكني تعمدت تجاهل كل هذا. وتركت نفسي لعالم الليل الذي لا نهاية له. وكلما وخزني ضميري بأنني سأتحول إلى قاتل وسارق محترف كنت أخمده بحديث داخلي عن ظلمي وتعاستي والأبواب الموصدة في وجهي. وفي الليلة الخامسة لفت انتباه المعلم راشد أنني أتحدث كما لو كنت باقيا معهم إلى الأبد. انتظر حتى نام الرجال ثم همس في أذني مشيرا بيده إلى فوهة الكهف:

ـ أريدك في أمر ما.

وسحبنا جسدينا من تحت أغطية مهترئة، ومضينا خارج الكهف. استقر بنا الحال على حجر ضخم فجلسنا متجاورين. سادت لحظة صمت قطعتها قائلا:

ـ خير يا معلم راشد.

فتنحنح ثم قال:

ـ أنت ضيف كريم .. لكن لم تبق معنا من قبل كل هذه المدة.

فابتسمت في تحسب وقلت:

ـ هذه المرة لست ضيفا.. ولست الشخص الذي كان يحضر لكم احتياجاتكم من طعام وشراب ومكيفات في السنين التي خلت.

فامتلأ وجهه بدهشة لم تخرجه عن ثباته، وقال:

ـ ماذا تعني؟.

وسردت على سمعه حكايتي كاملة، وهو صامت. حدقتا عينيه متسعتان حتى ظننت أنهما تطوقاني، وشفتاه مزمومتان على عزم فعل شيء لا أعرف كنهه. ولما انتهيت ربت على كتفي وقال:

ـ نحن نعرف أنك دخلت السجن.

فقلت في انكسار:

ـ والآن أنا على أبواب سجن جديد إلا إذا بقيت معكم.

فربت على كتفي وقال:

ـ أهلا بك معنا.

وحين كنا نهم بالوقوف، وننفض عن ملابسنا بقايا رمل وجير علقت بها، قلت في رجاء:

ـ هذا سر بيننا ولا أريد أن يعرفه الرجال.

فشد على يدي قائلا:

ـ في بئر عميق.

***

ومضت الأيام رتيبة لا يخفف مللها سوي صولات وجولات قليلة بين جنبات الصحراء الفسيحة، وغارات تعد على أصابع اليد كل زمن على بيوت

الأغنياء، نتحصل منها على ما يطيل أمد بقائنا في الجبل. وسرني أن المعلم راشد أقلع عن عادات القتل والتدمير، حيث كان يؤجره بعض الناس للتخلص من أشخاص أو حرق مزارع وإتلاف محاصيل وسرقة ماشية أو تسميمها. وعرفت أنه أصيب ذات يوم بطلق ناري نافذ بينما كان يهاجم وعصابته أحد بيوت الأثرياء ليقتله. وبات ليلتها على شفا الموت، وعاني من سكراته ليالي طويلة بعدها، تراءت له فيها كوابيس مقبضة، وهذيان متقطع بأسماء من قتلهم. وحين تماثل للشفاء اتخذ قرارا بألا يقتل أحدا، ولولا الإعدام الذي ينتظره أو على الأقل السجن المؤبد لتاب تماما وعاد ليحيا بين الناس. وكان عليه أن يعيش في الجبل إلى نهاية الأجل. ولأن هذه المعيشة تحتاج إلى نفقات له ولأتباعه كان عليه أن يستمر في السرقة، لكن لا يسلب إلا بما يقيم الأود.

وراق لي ألا أكون لصا أو قاتلا محترفا، إنما سارق يجد مبررات لجرائمه. وكنت دوما أبدي تحمسي لمسلك المعلم راشد، ولا أعتني كثيرا بزفرات رجاله الذين كانوا يريدون أكبر قدر ممكن من المال، ويتحدثون عن أيام النهب والقتل باعتزاز شديد، ويقولون أنهم تحولوا إلى ما يشبه النساء، أو الكلاب الضالة التي لا يهمها سوى الحصول على ما تقتات به من النفايات والمخلفات الآدمية.

وتعلمت من حكايات المعلم راشد الكثير عن التمويه والخداع ومناورة الشرطة وحراس الأثرياء. كنت محببا إلى نفسه فصرت أمينا على أسراره. آمن بإخلاصي له واقتناعي بدربه الجديد فراح يوطد قدميّ في عصابته. وأخذت أزحف رويدا رويدا من الهامش حيث الجفاء وعدم الاعتناء إلى القلب حيث المشاركة في وضع الخطط وتدبير المعيشة.

لم يكن هذا الوضع يسيرا، فقد كنت أواجه كل يوم حنق الرجال. وكعادة البشر لم تخل مجموعتنا، التي لا تزيد عن خمسة عشر رجلا، من صراعات، خفية أحيانا، وظاهرة في أوقات عديدة. ولأن عودتي عن الطريق الذي سرت فيه بدت مستحيلة، زاد اهتمامي بالأمر، وصنعت حيلا كثيرة لتفادي غضب الرجال. لم يكن بينهم من يستطيع أن يثني راشد عن قرار اتخذه، أو يمنعه من إفساح الدرب أمامي، حتى صرت الرجل الثاني في العصابة. لكني، كغيري، كنت مطيعا لا أعصي لكبيرنا أمرا. واقتنعت بحياتي الجديدة، ووجدت في الجبل الأمان والصحبة. لكن الأمور انقلبت تماما في ثلاث ليال لن أنساها أبدا.

في الليلة الأولى هاجمنا بيت أحد الأثرياء. لكن لم تكن عملية سهلة كالسابقات. دخلنا في مواجهة حامية مع حفنة من الرجال المسلحين. وفررنا إلى الجبل، في أيدينا بعض ما سرقناه من نقود وذهب، وعلى ملابسنا بقع من دماء سالت من صدر المعلم راشد. طلقة قصدته ولم تخب، فحملناه على أكتافنا وانسحبنا في زراعات القصب ومنها إلى الجبل. في الليلة الثانية أصابه إغماء شديد، وراح يهذي وصدره يفور ويرغي، وشفتاه تتقددان على مهل. وحرنا في أمره. هل نستخدم سيخا محميا لانتشال الرصاصة أم أنها استقرت في العميق، والبحث عنها في هذه الحالة يعني الموت المحقق. في الحالتين الموت آت لا محالة. في الليلة الثالثة وجدنا ما توقعناه. صار جثة هامدة وأطرافا باردة، وعينين منبلجتين لا تعبران عن شيء سوى الرحيل الأبدي.

مات المعلم راشد، وتركني بين أيد لم ترحمني..

بعد أن رمينا آخر حفنة حصباء على قبره، نظرت في عيونهم جميعا فرأيت غدرا محفورا بعمق السنوات الثلاث التي عشتها معهم. وقلت في نفسي

لابد من استباق الأمور، وطمأنتهم بأنني لست راغبا في شيء سوى مكان للاختباء. توجهت إلى المعلم هاشم، أكبرنا سنا، وقلت له:

ـ أنت الآن قائدنا.

فجفل مني، وذهب بعيدا، دون أن يرد. فتوجهت إليهم جميعا وقلت:

ـ الآن نحن أمام حقيقة لا تقبل الجدل .. المعلم راشد مات، لكن طريقنا لم ينته، ولا تبحر السفينة دون ربان.

وسادت لحظة صمت بغيض، فأردفت:

ـ الأمر يتطلب ما قلته، والقرار لكم جميعا.

ورد حسونة في صلف وتهكم:

ـ قدها أنت..

فاستدرت إليه مبتسما وقلت:

ـ أعلم أنني قبل سنوات كنت أحمل إليكم الطعام، ولا أطمع فيما هو أكثر من كوني فردا سيخلص لأي واحد منكم يتولى قيادتنا.

وعاد حسونة إلى صلفه:

ـ لا تلف ولا تدور .. قل ما تريده مباشرة.

وبلهجة ملؤها الرجاء:

ـ لا تسيئوا الظن بي.

فتدخل خليفة بصوته الأجش:

ـ نحن نفهم قصدك.

وتدخل مصيلحي ليلطف الجو المشحون بالكراهية والتخبط. تطلع بعينيه الضيقتين في الوجوه وقال:

ـ لـن يحمـد المعـلم راشد في قبره أن رجاله يتشاحنون بينما جسده لا يزال رطبا.

وتدلـت عـيون الرجال في انكسار. ولاحت في الأفق بوادر انفراج، فتقدمت إلي المعلم هاشم وقلت له مادا يدي:

ـ أنت الآن كبيرنا.

فصـافحني صـامتا. وتقـدم الجمـيع فوضعوا أيديهم في يده، وانتهى الموقف العصيب. لكن الأمور لم تعد بيننا إلى حالها.

***

لم يمـر سـوى أسـبوع على هذه الواقعة، حتى وجدت المعلم هاشم يقول لي ذات صباح:

ـ ستعود الأمور إلى سابق عهدها.

فنظرت إليه مستفهما، فأردف:

ـ تعرف أن عبد الغفار هو الذي يأتي إلينا بحاجياتنا.

لم أرد، فواصل:

ـ بلغنا أن الشرطة قبضت عليه.

فتملكني هلع، ووجدت نفسي أقول له في صوت ممزوج بالرهبة:

ـ إذن أصبحنا في خطر.

فعبث بشاربـه، وقال وهو ينحي بندقيته جانبه:

ـ السبب لا يتعلق بنا إطلاقا.

فتنهدت متسائلا:

ـ وما هو؟.

فهز رأسه في أسى:

ـ تشاجر مع أحد الشباب على المقهى، وضربه بمطواة في بطنه.

ـ مات؟.

ـ لم يمت لكن المؤكد أن يذهب عبد الغفار إلى السجن.

وسادت لحظة صمت، فكرت خلالها في كلامه، واقتربت مما يريده مني، لكنني انتظرت أن يتحدث عنه صراحة. ولم يدع التفكير يطول بي، فنظر إلي قائلا:

ـ لن يعوض عبد الغفار غيرك.

وأظلمت الدنيا أمامي، وانتابتني كآبة وانقباض. ولاحت أمامي في الأفق الأصفر أيام جديدة من الشقاء. أطرقت كسيف البال، لم يسعفني عقلي المتحير من قول أي شيء. فالقبول مستحيل، والرفض معناه إما ترك المكان أو فضح السر، وكلاهما أمر صعب، فالعودة إلى الوادي معناها السجن، ومخالفة الرجال قد تؤدي إلى التخلص من رجل مارق يعرف مكان اختبائهم والكثير من أسرارهم. ولاحظ المعلم هاشم صمتي وشرودي فقال:

ـ هذه المهمة ليست أقل من مهامك هنا.

فتطلعت في وجهه المكتسي بحزم قد لا يلين، وقلت:

ـ المسألة ليست هكذا.

فتفحصني مليا وسألني:

ـ ما هي إذن؟.

ولم أجد إجابة لا تؤدي بي إلى خيارات ممقوتة سوى القول:

ـ تعودت على صحبتكم.

فقهقه قائلا:

ـ لن تحرم منها أبدا.

ونظرت إليه في رجاء:

ـ أليس هناك رجل آخر يقوم بهذه المهمة.

فتجهم وجهه وأشاح بيده قاطعا:

ـ ليس هناك غيرك.

وأدركت أنه لا فائدة من الجدال معه، وأن إطالة الحديث في هذا الأمر قد تؤدي إلى انكشاف سري. وقلت في نفسي، وأنا أستحضر حكايات المعلم راشد:

ـ التمويه في هذه الحالة مسألة لا مفر منها.

وفي اليوم التالي جلست أجمع من أفواه الرجال المطلوب مني إحضاره، وخرجت من الكهف عند الظهر، تطاردني أوامر المعلم هاشم:

ـ لا تدخل البلدة إلا في الليل.

ولم يكن أحد منهم يعلم، وهو يتابع انسحابي البطيء بين دهاليز الصخور، أنني لن أعود.

***

مع كل خطوة كنت أقطعها تجاه الليل الآتي كانت الأفكار تتقلب دون هوادة. تحضر وتتلاشى. تحل الواحدة فأمحصها، ورأسي مكبل بالخوف من المجهول، وتبلد مصطنع حيال زوجتي المسكينة الوفية الصابرة. واحدة فقط استقرت، وراحت تنمو مع الخطوات المتتابعة، حتى ملأت كياني. لم تكن سوى الرحيل غربا، وبالتحديد إلى ليبيا. ركبت القطار من محطة المنشاة رأسا إلى القاهرة. خبأت نصف وجهي خلف كوفيتي العريضة، خوفا من أن يراني أحد من أهل قريتي أو القرى المجاورة، من أولئك الذين يعرفون حكايتي. كنت متيقنا أن الشرطة لا تجد في البحث عن أمثالي لأنها مشغولة بهؤلاء الذين

يهددون وجودها كجهاز يخدم من بيدهم الأمر. هكذا أفهمني المعلم راشد ذات ليلة، وهو يؤكد أننا سنبقى في الجبال ولن يخرجنا منها سوى ملاك الموت.

واستقبلتني محطة رمسيس بضجيجها وزحامها وأودعتني قطارا آخر ذاهبا إلى الأسكندرية، التي وصلتها مع حلول الليل، ولم تلبث أن سلمتني إلى قطار ثالث، شق الصحراء إلى مرسى مطروح. نزعت الكوفية عن وجهي، ورحت أتابع البلدات الصغيرة العزلاء الملقاة على الجانب الأيمن للطريق حتى وصلت مقصدي. نزلت من المحطة، وسألت عن لوكاندة. ربما هي نفسها التي نزل بها علي صابر حسنين بعدي بأيام. بت ليلة واحدة، استعدت فيها حكايات رجال قريتنا عن مغامراتهم المريرة، وهم يتسللون إلى ليبيا. ونسجت من كل ما أسعفتني به الذاكرة خطة الهروب. حملت الماء والزاد وبندقيتي التي فككت أجزاءها قبل نزولي إلى الوادي، وأودعتها كيسا بلاستيكيا سميكا لا يشف شيئا. وقلت المؤونة للطريق، والرصاص للذئاب والضباع والثعابين الضخمة.

وانعطفت من السلوم إلى الجنوب بمحاذاة الحدود المصرية ـ الليبية. مشيت نهارا كاملا وثلاثة أرباع ليلة. عيناي على مدى معتم، لا يظهر شيئا. قدماي تورمتا من حصباء كالشوك، تكاد أن تخرق حذائي البالي. وواجهتني في ضوء القمر، الذي هل آخر الليل فوهة مفتوحة على قعر مظلم. وقفت عند أولها، وتفرست في العميق فلم أر شيئا. وتنصت فلم أسمع أي صوت. توغلت بحذر حتى استراحت قدماي لأرض ملساء فجلست القرفصاء. تحسست المكان براحتيّ فوجدت فراشا مهجورا. كان عدة بطاطين ووسادتين. اتكأت على جنبي، ومددت ساقيّ فقرقعت أوان. قمت وبحثت عنها فوجدت براد شاي، ووابور كيروسين، وأكواب صاج، وجرارا فخارية للماء. وضحكت ما وسعني، وأنا أتخيل أن المعلم راشد سيشق جانب المغارة، ويخرج ليحكي لي ما لم يقله. لماذا

لم يفصح لي عن أنه قد جاء إلى هذا المكان يوما؟.. وإذا لم يكن قد أتي إليه فلما لم ينبئني بأن رفاقا تائهين مثلنا حلّوا في تلك البقعة. هل صمدوا مثلما فعلنا نحن في الصحراء الشرقية؟ أم أكلتهم الوحوش أو نال منهم بدو الصحراء؟ أو قبض عليهم حرس الحدود بعد مطاردات حامية؟.

كانت الجرار فارغة، والوابور خال من الكيروسين، وعلب الشاي والسكر فارغة، فأيقنت أنها مغارة مهجورة وأن ساكنيها ربما ذهبوا ولن يعودوا. وتمددت على الفراش ما وسعني، وخلدت لنوم عميق. لم أدر بالليل الذي ذهب، ولا الشمس التي ملأت الدنيا نورا وحرا، ومدت يدها إلى الكهف ليستحم من ضيائها، وإلى رأسي فتململت. لكن التعب أخذني إلى عمق السبات مرة ثانية، حتى عاد الليل ليفرض على المكان رهبة ووحشة.

وأنا ملقى في فراشي بين النوم واليقظة سمعت دبيبا لأرجل تتلاحق في همة، وحديثا يتصاعد تحمله الرياح، لكنني لم ألتقط منه شيئا. انكمشت مكاني وعيناي تبحلقان في فوهة الكهف. كان الدبيب يقترب والأصوات ترتفع وفجأة ازداد مدخل الكهف سوادا، وخلصت معالم رجلين يتقدمان نحوي. التقطت البندقية، وصوبتها ناحيتهما وصرخت:

ـ مكانك.

ولجمهما صمت مطبق. ومدا رأسيهما في الظلام ليتبينا مصدر الصوت. وسمعت خشخشة، فتشككت في أن أحدهما يمد يده في جيبه ليخرج سلاحه، فصرخت ثانية:

ـ أي حركة غدر ستؤدي إلى مقتلكما فورا.

فعادا إلى صمتهما، وكانت معالمهما قد اتضحت إلى حد كبير، فقلت:

ـ ضعا كل ما معكما على الأرض.

وكركبت بعض الأواني ثم استقرت هامدة.

ـ ارفعا أياديكما إلى أعلى.

وطقطقت أصابعهما المتشابكة، الملامسة لسطح المغارة، ونهضت واقفا وسألتهما:

ـ من أنتما؟.

فرد أحدهما بصوت متهكم:

ـ نحن أصحاب هذا المكان.

فقهقهت ما وسعني، وتهادت إليّ اللحظة الأولى لذهابي إلى المعلم راشد فسألتهما:

ـ إذن صفا لي المكان.

ووصفاه جيدا، فقلت لهما:

ـ أنا واحد منكما.

فرد الثاني:

ـ قاطع طريق.

وقفزت إلى ذهني الأيام الأخيرة للمعلم راشد فقلت:

ـ بل مطارد..

فقالا معا:

ـ كنا اثنين فصرنا ثلاثة.

فقلت في لهجة تتأرجح بين لين وشدة:

ـ أريد الأمان.

فردا معا أيضا:

ـ أنت أخ لنا أيها الغريب.

* * *

خلفان وسويلم من إحدى قبائل أولاد علي. ضبطا أكثر من مرة يسرقان فلفظتهما قبيلتهما ولم تقبل بهما أية قبيلة أخرى موالين لها . لم يجدا إلا العمال العائدين من ليبيا ليمارسا معهم حرفتهما.لم يجدا سوى هذا الكهف ليأويهما، فاتخذاه سكنا وتآلفا مع المكان إلى حد لا يوصف. يبيعان ما يسرقانه، ويحضران طعاما وشرابا يكفيهما أسابيع، ولهما عيون في قبائل عدة .يحلفان أنهما ذات مرة أحضرا امرأة غجرية من الأسكندرية إلى هذا المكان .مكثت معهما ثلاثة شهور، ولما أصابها إعياء شديد تحيرا في أمرها .طبباها على قدر ما تعلماه في القبيلة من التداوي بالأعشاب الصحراوية. كانا يغليانها لها صباحا ومساء .أرادا أن يحتفظا بها بأي شكل مدفوعان بالنشوة الغامرة التي تجتاح كل منهما كلما تذكر لحظات اللقاء الحارة، لكن أجلها انقضى ذات ليلة، فدفناها على يمين الكهف، ليشعرا في هذه الوحشة القابضة أن ريحا أنثوية تداعب خيالهما القاحل، فتنتابهما راحة وقتية، ورغبة دفينة في تكرار التجربة .

حين عرفا أنني أقصد ليبيا قهقها وضربا على ركبتيهما وهما يشيران إلى وجهي :

ـ كنا سنسرق ما معك أثناء عودتك، فإذا قاومت سيكون مصيرك الدفن في هذه الصحراء .

أشاركهما الضحك وأقول :

ـ أنتما فاجران ..

فيقول سويلم:

ـ هناك من هم أخطر منا.

ـ من؟

ـ حرس الحدود.

على الأقل هم لا يسرقون الناس .

فيهز خلفان رأسه في سخرية :

ـ بعضهم يسرق وإذا دعت الحاجة يقتل.

تذكرت حكاية روفائيل، لكنني تجاهلتها وسألتهما:

ـ وأنتما؟

ـ على الأقل نحن نلين أحيانا لاستعطاف ضحايانا فنقسم معهم ما يحملونه، ونتركهم يعودون إلى أولادهم .

وتسود لحظة صمت يقطعها سويلم متسائلا:

ـ هل تريد بعد ذلك أن تكمل رحلتك إلى ليبيا ؟

فتطوف رأسي بعشرات الحكايات التي قصاها على مسامعي عن الذين أهلكهم العطش، أو لدغتهم الطريشات السامة، أو قتلهم حرس الحدود وقطاع الطرق، فأقول لهما ضاحكا:

ـ باقي على قلبيكما.

وسردت عليهما حكايتي وهما صامتان بملامح يكسوها الأسى والتعجب، وعيون تفيض عطفا. لان قلباهما للمطارد الغريب، فأقسما أنني سأكون رفيقهما، ولن يفرقنا سوى الموت. لكني أبديت اعتراضا على نهب الغلابة، الذين يقطعون المفازات الشاسعة بحثا عما يقيم أود عيالهم، وقال خلفان بغيظ:

ـ إذا لم نفعل ذلك متنا جوعا.

فقلت لهما مستلهما الأيام الأخيرة في حياة المعلم راشد:

ـ نأخذ ما يكفي معيشتنا ونؤمن لهم الطريق.

لم يستريحا للفكرة للوهلة الأولى، ودار بيننا جدل طويل عن الحلال والحرام، وشيم الرجال الشجعان، وكرم البدو. وانتهى بنا الحال إلى ترك المسألة للظروف.

كانت ليلة قمرية حين خرجنا لأول عملية لنا معا. مكثنا غير بعيد من طريق يسلكه العائدون ليلا من ليبيا. ساعات مرت دون أن تلوح في الضوء الشفيف أي فريسة، وكدنا نعود أدراجنا صفر اليدين، لكن الليل حمل إلينا هسهسات بعيدة فانتظرنا. وظهر بعد فترة شبحان يترنحان تحت حمولتين صغيرتين. اقتربنا منهما على مهل. كانا رجلين، أحدهما على مشارف الستين من عمره، والآخر شاب في مقتبل العمر. صرخ خلفان:

ـ مكانك.

فثبتا مرتعدين، وأشاحا ما يحملانه قليلا، وشخصا بصريهما، فوجدا ثلاثة رجال مسلحين، وراءهما صحراء لا نهاية لها، وليل مشحون بالخوف. تقدم سويلم، وصوب بندقيته تجاههما، وصرخ فيهما:

ـ ضعا ما معكما على الأرض.

ووضعاه بأيد مرتعشة.

وصرخ فيهما مرة ثانية:

ـ ارجعا إلى الوراء.

رجعا. واندفع خلفان يقلب الحمولتين، وهو يضحك ويقول:

ـ صيد لا بأس به.

ثم تقدم نحوهما وأمرهما مرة ثالثة:

ـ ارفعا أياديكما إلى أعلى.

وراح سويلم يفتش جيوبهما حتى أفرغها من محتوياتها. نقود. ساعات رخيصة. مذياعان صغيران. ثلاث قطع من الذهب، قرط وخاتم وغويشة. أوراق ثبوتية. مطواة قرن غزال. وضع سويلم كل هذا في جيبه، وصرخ فيهما:

- انصرفا.

لكنهما لم يبرحا المكان، وعلا صوت نحيب مكتوم، لم يلبث أن صار ولولة وصراخا انداح في جنبات الصحراء. كان الشاب يلطم خديه ويقول:

- أخذتم مهر عروسي.

أما الشيخ فلم يتخل عن رزانته. تقدم ونظر مليا في وجه خلفان، وقال:

- هذا ليس من شيم الرجال.

فلطمه خلفان بقسوة، فقال وهو يضع يده على وجهه:

- أتضرب رجلا في سن أبيك!.

ثم أردف مستغلا الصمت الذي ساد لبرهة:

- ما سلبته مني هو قوت أولادي كدحت طويلا للحصول عليه، ولأمر آخر لا يعرفه قساة من أمثالكم.

فضحك سويلم وقال متهكما:

- هل لعروس أيضا؟.

فتقدم إليه بعينين تتأرجحان بين رغبة في البكاء وثبات الكبرياء، وقال:

- أنت لا تعلم أن النقود التي سرقتها من جيبي، هي أجر طبيب سيجري جراحة في القلب لأحد أبنائي، وإلا سيموت.

ورفع وجهه فوجدني أقف بعيدا، لا أشارك خلفان وسويلم النهب والقسوة، فتقدم مني قائلا:

- كيف تقبلون الحرام؟.

ونظرت في عينيه الكليلتين وقلت:

- حاشا لله يا عم .. لكنها الظروف.

فاقترب مني خطوتين وقال:

- إذا كنت ضيفكم فلتكرموني، وإذا كنتم ضيوفي سأكرمكم.

فنظرت إلى خلفان وسويلم فأشارا برأسيهما موافقين، فقلت له على الفور:

- سنعطيك ما أخذناه منك، ثم ننتظر عطاءك.

فرد وهو يشير إلي الشاب الواقف خلفه:

- وهذا المسكين.

- كلامي يسري عليه.

ولم نـأخذ منهما إلا بضع نقود. ومن يومها تغير الحال، لكننا بقينا أقرب إلى قطاع الطرق منه إلى المتسولين. نجرد ضحايانا من كل ما معهم، ونأخذ في النهاية، بعد وقت عصيب، ما يقيم أودنا. كل منا بات مقتنعا بأن تراكم المال لا يفيد في تلك الصحراء الجرداء، ولا يوجد بيننا من يعمل سوى للأيام التي يعيشها فقط. يوم بيوم.

***

كنا في بعض الأحيان نقطع مسافات طويلة تجاه البحر. نذهب محملين بهموم كثيرة فنقذفها للموج، ونعود محملين بالطعام والشراب. ومن حصيلة من سلبناه تباعا اشترينا ثلاثة جمال من أحد البدويين كانت تساعدنا في تلك الرحلة الشاقة. نمتطي ظهورها، ونضربها بلطف على رقابها فتعدو ناحية الشمال. وذات مرة توجهنا جنوبا إلى واحة سيوة. وقضينا أياما عند بدو "بئر الشقا" و"بئر بيلي" و"قارة تيرا"، فشملونا بكرم عميم. كان خلفان وسويلم

يقدمان نفسيهما على أنهما رجلان من منطقة "قارة حير يمس" المتاخمة لمنخفض القطارة، وأنني ضيفهما من الصعيد.

في إحدى المرات كنت أهم تجاه المياه الزرقاء فلمحت شابا جالسا فوق صخرة تطل على البحر. تقدمت إليه وأنا متعطش إلى أي إنسان أتكلم معه ، بعد أن صار خلفان وسويلم كل من يجاذبني أطراف الحديث في هذا العالم برمته. كان حزينا. في عينيه انكسار وأسى. على وجهه صفار من لم ينم منذ أيام. رفع رأسه فلمحني على بعد خطوات منه فأشاح بوجهه إلى البعيد، وانطوى على نفسه، ليتفادى التقاء عيوننا.

كنت عازما على الحديث معه بأي شكل. وما إن رد سلامي بسلام أحسن منه، حتى حلت ذكريات الصعيد في رأسي. اللهجة القوية المتدفقة من الطين والصخر والحناجر المتصلبة. مددت يدي إليه لأصافحه، فزاد يقيني بأن ما فكرت فيه كان صائبا. أصابع مفرودة عن آخرها. راحة خشنة، وقبضة قوية شعرت بوطأتها على يدي. لم تذب لحظات التوجس بسرعة، لكنها تلاشت في النهاية لتفتح الطريق أمام حديث عن البحر، ومدينة السلوم، ومزارع الشعير، والذاهبين إلى ليبيا. كان كلامه قليلا قياسا إلى رغبتي العارمة في الثرثرة. لكن عباراته القصيرة قادتني إلى ما كنت أعتقد وقتها أنه الحقيقة.

بعد لحظة صمت، قلت له فجأة:

ـ أنت هارب من ثأر.

فامتقع لونه، واتسعت مقلتاه، ونكس رأسه، مبتلعا ريقه بصعوبة، وقال:

ـ لا يريدون إلا قتلي مع أنني برئ.

وأردت التقرب إليه ليبوح بما هو أكثر فأمنت على كلامه قائلا:

ـ أوغاد.

فحملق في وجهي مستطلعا وقع كلامه على ملامحي وقال:

ـ لم يشف غليلهم أن يسجن القاتل.

فنظرت إلى البعيد وقلت:

ـ عادة بغيضة لا يريدون الإقلاع عنها.

عبث بشاربه الكث وسألني:

ـ وأنت؟.

فأجبته على الفور:

ـ حالي كحالك.

وسرت بيننا طمأنينة تتابعت خلجاتها في قهقهة طويلة، هز بعدها رأسه قائلا:

ـ يا للأقدار.

حدثته عن الكهف الآمن، والصاحبين البدويين، والطريق الطويل، وجلال الصحراء نهارا، ووحشتها ليلا. عرضت عليه في نهاية المطاف أن يأتي معي، فقبل بعد تردد وجدل طويلين. ومع الأيام فتحت له قلبي ففتح لي قلبه، وسرد على مسامعي حكايته المريرة، بعد أن تعاهدنا على صحبة لا يفلها سوى الموت.

(ع)

ذات عصر صمتت البلدوزرات،وترجل قائدوها، وراح الرجال يمسحون العرق عن جباههم، وينفضون الغبار عن ملابسهم الكالحة. كانت الأرض قد استوت، وباتت جاهزة للغرس، لا تحتاج سوى لأيد قوية، أو ماكينات تشج سطحها فتصير أفلاجا، ينبت الزرع على جوانبها، أو أحواضا تحيط بصنابير التنقيط، الممتدة كالأوردة، لتتجمع في القلب هناك على طرف المزرعة، حيث الطلمبة الإردوازية الضخمة.

وجاء الرجال تباعا، فحصلوا على أجورهم كاملة من صاحب المزرعة الجديد الجالس في خيمة صغيرة، يستقبلهم بابتسامات عريضة ويد ممتدة عن آخرها بحقوقهم المنتظرة. وحين اطمأنوا إلى استقرار النقود في جيوبهم، هرعوا لجمع متعلقاتهم البسيطة. وضعوها في أكياس بلاستيكية، ثم استقلوا عربة نصف نقل، كانت تنقل الطمي من الوادي الخصيب، وتكومه على طرف المزرعة، ليمتزج يوما بالرمل الأصفر، فيصبح تربة صفراء، تصلح لزراعة محاصيل كثيرة، بدلا من الشعير.

لم يبق أحد إلا أنا وصاحب المزرعة الجديد. كانت العربة تبتعد، وتذوب هناك في المدى الأصفر، بينما أنا اقترب رويدا من خيمة صاحب المزرعة، المصنوعة على عجل. دخلت إليه مبتسما، فواجهني ببشر، جعل الاطمئنان يسري في نفسي، وشجعني أن أقول له بثقة:

- غدا ستصبح كل هذه الأرض خضراء.

فقال دون أن تفارقه الابتسامة:

ـ لكن هذا الغد قد يتأخر.

فانقبضت، ونظرت إليه مستفهما دون أن أتكلم، فأردف:

ـ عملية الاستصلاح استنزفت كل ما معي من مال، ولا بد من الانتظار حتى أتحصل على مال جديد.

فزاد انقباضي، وتدلت عيناي في انكسار، وقلت له وأنا أمني نفسي بأن اقتراحي سيروق له:

ـ لدينا أرض المزرعة القديمة، والطلمبة الإردوازية لا تزال على حالها، ويمكن أن نزرع أي محصول تقبله الأرض، بدلا من تبوير كل المساحة هنا.

لكنه هز رأسه قائلا:

ـ أنا أفضل أن نزرع الأرض كلها فيما بعد.

وتذكرت حكمة كان يقولها أبي دائما وظهره على انحنائه أمام ملاك الأرض وفأسه يضرب بقوة، وأذنه تسمع أوامرهم المتتابعة: "من حكم في ماله فما ظلم"، لكنني لم أفقد الأمل، وعدت إلى القول:

ـ لكن عدم زراعة هذه الأرض خسارة .. الطلمبة موجودة، ولن تكلفنا زراعتها كثيرا.

فاكتسى وجهه بمسحة من العبوس، وقال:

ـ سأبيع هذه الطلمبة، وأضيف إلى ثمنها وأشترى واحدة أكبر، تكفي لري كل هذه الأرض.

نظرت إليه صامتا، فأردف قائلا:

ـ بالنسبة لك، لم أنس أن كاظم أوصاني بك خيرا، سنكون على اتصال، وحين أشرع في زراعة الأرض، لن أجد خيرا منك ليعينني.

ومد إليّ ورقة بها رقم هاتفه، وقال:

ـ كن على اتصال بي.

ثم مد يده في جيبه، وأخرج نقودا، ودسها في يدي قائلا:

ـ هذا أجرك.

وأشار إلى سيارته الواقفة فوق المدق، وقال:

ـ نفك الخيمة، ثم نمضي معها إلى مرسى مطروح.

وانتابني ارتباك وحيرة، لكني ما لبثت أن تماسكت، وأشرت بإصبعي إلى البعيد وقلت له:

ـ سأذهب إلى صديق لي في سيدي عمر.

فضحك قائلا:

ـ كونت صداقة هنا في فترة وجيزة.

فبادلته ضحكة مغتصبة، وقلت:

ـ لم تترك لي الظروف خيارا آخر.

فقال وهو يهم واقفا:

ـ من أجل الحماية.

فرددت على الفور:

ـ ليس غيرها.

فقال، وهو يشد على كتفي:

ـ لذكائك هذا لن أتخلى عنك.

فقلت وأنا أشد على يده مودعا:

ـ نلتقي على خير.

فككنا الخيمة. ترك أوتادها الصلبة ملقاة مكانها، ولملم أطراف قماشها المتين، وألقاه في المقعد الخلفي من السيارة، ومضى، تاركا وراءه عجيجا يتصاعد حلزونيا ويموت هناك في الأفق البعيد.

***

ورحت أفرد الخطى إلى كهف يعصمني من الضياع. وحلت برأسي الصحراء كاملة، وغارت المدن. لم يعد هناك شيء يناسبني سوى الرمل والصخور المدببة، ومدقات كسيحة تتعرج إلى البعيد، وتتوغل أكثر في أعماق الأمان. هنا لا شرطة تتعقبني، ولا أحد يسمع صوتي سوى الخلاء الممتد حولي، والسماء الجاثمة هناك على الرمل لتؤكد أن الأرض كروية، وأن الأيام تدور، وأنا ألف حولها بلا هدى. ودليلي كلمات مبعثرة عن حفنة رجال استقروا هنا في بطن الصخر، وإشارات سريعة من يد عم عوض، التي طوحها في الهواء وقال لي ذات عصر، دون أن ألقي بالا لكلامه:

- هناك يقع الكهف.

وهاأنا أسير إليه، والشمس تنسحب، وتتركني فريسة للعتمة الآتية، ولعواء ذئب نهض يبحث عن طعام رخيص. سأصل إليهم يوما وأقول للرجال وأنا أقهقه لأغسل وجعي:

- صرنا خمسة.

سنبيت ليلتنا الأولى في حضن الذكريات الغاربة، والمجهول القادم على مهل. سأحكي لهم بعضا مما منحتني إياه الكتب عن جيوش الأسكندر المقدوني، التي مرقت يوما من مكان قريب من هنا، ودموع روميل التي هطلت على الرمل وهو ينكسر أمام زحف الإنجليز. وقد تسعفني الكلمات فأسرد عليهم بعض ما قاله ابن خلدون عن أهل البداوة، والأودية المطبقة على ناس لا

يجدون بدا من الصحراء لتقيهم من شر السلاطين. سننام متجاورين كما نام الأسلاف العظام، لكننا سنصحو بعد ساعات قليلة على الفجيعة. لا كلب يحرسنا. لا غاية نبيلة نسلك المسارب الوعرة إليها. هناك سأفشي كل أسراري فما عاد الكتمان ينفع. سأجتر الكلمات المحفورة على حوائط السجن الكالحة، وأرسم رصيفا عريضا يشرف على النيل، وورود في يد الصغار، ألتقط بنفسجة منها، وأهديها إلى سلمى النائمة الآن قريرة العين.

* * *

دائرة لا نهاية لها من العتمة، تثقبها نجوم لا تكشف شيئا. الحصباء بردت لكن مزالقها زادت تحت قدمي السائرتين بلا هدى. لا أرى الحفر التي ابتلعت إحداها كل الساقين، فسقطت في قعرها آهة ألم ودمعة كانت واقفة على أسنة الرموش المغبرة. نزعت نفسي منها، وحملقت في الطريق لأتقي الحفر، التي ربما كانت خنادق، ربض فيها جنود يوما ما في انتظار النار والدم.

وضعت عينيّ بين الحصى، ويديّ فوق عنقي المتدلي إلى أسفل، وظهري انحنى بزاوية منفرجة. ومشيت دون أن أدري وكأنني في سباق على تفادي السقوط في الحفر، وليس في طريق إلى كهف مملوء بالحكايات المرة. مشيت كثيرا والليل يطوق خطاي الحذرة، حتى أخذتني حفرة أخرى. كانت قدمي اليمنى مرفوعة لتدوس العتمة، بعد أن ظنت عيني أن قطعة الظلام المستديرة أمامي ليست سوى دائرة من حصى أسود، أو رمل شرب ذات يوم من جاز عربات الجيش التي ربما مرقت من هنا. لكنها لم تكن سوى حفرة عميقة على جانب الطريق. سقطة سريعة كاد أن يتمزق لها ظهري. اتكأت على جانب الحفرة، ومددت رأسي، وناديت بأعلى صوتي:

ـ يا عم عوض..

لم يكن هناك مجيب غير صدى يهزأ مني، وصراخي يلف الصحراء ليموت هناك على أسنة التباب البعيدة، ثم يسقط في الرمال السافية التي ربما تنتظر قدميّ المنهكتين فتبتلعني، فريسة شهية في ذلك الليل الساكن. صعود وهبوط. قيام وقعود. وقوف وسير بطئ. حركات في الزمان والمكان لا تعني شيئا سوى أنني تائه ضائع، أبحث عن ضالتي. وضالتي كهف رطب في بطن الصخر الصوان، ورجال جاءوا ليقضوا هنا أياما يريدون لها جريانا، لكنها تمضي كسيحة رتيبة، لا يلوح أمل في الخلاص منها سوى الموت.

10.00 LE

صدر للدكتور عمار علي حسن

١ ـ "عرب العطيات"، مجموعة قصصية، الهيئة العامة لقصور الثقافة/ القاهرة، ١٩٩٨.

٢ ـ "حكاية شمردل"، رواية، مركز الحضارة العربية/ القاهرة، ٢٠٠١.

٣ ـ "الأبطال والجائزة"، قصة للأطفال، مؤسسة هزاع بن زايد/ أبوظبي/ ٢٠٠٣.

٤ ـ "أحلام منسية" مجموعة قصصية، دار شرقيات، ٢٠٠٥.

٥ ـ "النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية"، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢.

٦ ـ "الصوفية والسياسية في مصر"، مركز المحروسة/ القاهرة، ١٩٩٧.

٧ ـ "وزارة العدل المصرية: سيرة مؤسسية"، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٣.

٨ ـ "ممرات غير آمنة: مدى تهديد الراديكاليين الإسلاميين لوسائط نقل الطاقة"، مركز أبحاث الخليج/ دبي، ٢٠٠٣.

٩ ـ "التحديث وتفكيك البنى الاجتماعية التقليدية: حالة اليمن"، مركز أبحاث الخليج/ دبي، ٢٠٠٤.

١٠ ـ "التكافؤ الاقتصادي والديمقراطية"، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٤.

١١ـ الإصلاح السياسي فى محراب الأزهر والإخوان المسلمين، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٥.

١٢- العلاقات المصرية - الخليجية، مركز أبحاث الخليج، دبي ٢٠٠٦م.

تحـت الطبــع

١ ـ أحزان بريئة، رواية.
٢ ـ شمعة تضئ الشمس، رواية.
٣ ـ "المفترض والمتاح: في بناء إطار للحركة السياسية العربية".
٤ ـ الأيديولوجيا، المفهوم والتمثلات.

صحراء ممتدة بلا نهاية، وسراب تلو سراب، وسماء تحط في مرمى البصر على حلمي الأعزل بالإياب ليس هناك ما يؤنسني سوى هذه الأفدنة القليلة من الشعير نقطة خضراء في بحر الرمال الأصفر، على طرفها يقف الخص المصنوع من جريد النخل والبوص والطين دليلاً آخر على ترعرع حياة وسط الموت المتوغل إلى أعماق السنوات البعيدة



